في بلد اللحى

الطبعة الأولى يناير ٢٠١١
رقم الإيداع : ٢٣٤٩/٢٠١٠
I.S.B.N: ١-٣٨-٦٣٣٧-٩٧٧-٩٧٨
غلاف : إسلام عبد اللطيف
تصحيح لغوي : ساره سرحان

جَميعْ حُقوقْ الطَبْعْ والنَّشرْ محْفُوظةْ
© د ا ر دَ وِّنْ

١ شارع السعادة
نصوح - الزيتون - القاهرة
تليفون: ٠١٤٩٢٨٩٢١٤
فاكس: ٢٤٥٢٥٠٥٤ (٠٢)
E-mail:dawen@daralkotob.net
بالتعاون مع موقع دار الكتب الإلكتروني:
www.daralkotob.com

فــي بــلد اللحــى

حســـام عـــادل

دار دَوِّن للنشر والتوزيع

الإهـــــداء

هاهو كتابى أخيرا قد خرج إلى النور... أحمله فى يدى كطفل رضيع ... سعيدا به وفخورا لأنه جزء منى ... ولكنه - للأمانة- جزء من آخرين ، شاركونى التعب والمثابرة والتشجيع حتى لا أمل لحظة ويخرج هذا الكتاب بالشكل الذى أتمناه ويرضيكم ... لذا أنا أمامكم ، أنحنى لهم جميعا حبا واحتراما وتقديرا لصنيع لن أنساه أبدا فى حياتى.

أولا وقبل الجميع دوما... أهدى كتابى إلى اللّه عزو جل الذى أدين له بكل ما حققت وما سأحققه يوما بفضله وحده سبحانه ...

أهديه إلى أمى... السيدة التى منحتنى كل ما أردته يوما فى الحياة... أطال اللّه عمرها وبارك لى فيها...

أهديه إلى أبى الروحى ومعلمى الأستاذ/ محمد محمود... الرجل الذى لطالما أمطرنى بحبه واهتمامه ومساعدته لى بكل الصور ، حتى لم يعد كتفى يحتمل صنيعاً آخرا منه يضيفه إلى ما فعله معى طوال حياتى...أنا حقا أدين له بالكثير.

أهديه إلى صديق عمرى/ أحمد... الذى تحمل فى صبر أن أقص عليه كل شىء أكتبه دون أن يمل أو يشتكى لحظة.

أهديه إلى دار (دوّن) ومديريها الأفاضل... الذين وثقوا فى موهبتى المتواضعة وبنوا آمالا على شاب صغير السن مثلى... لهذا أحمل فى عنقى دينا لهم بأن أواصل التعب والمجهود كى أحقق ما رأوه في وأكثر .

أهديه إلى أصدقائى الأعزاء الذين أبدوا ملاحظاتهم وساعدونى بشتى الطرق لتخرج كل قصة فى هذا الكتاب كما يليق بكم... إلى الكاتب والصحفى/ شريف عبد الهادى... الشاعر الفذ/محمد غازى... وبالطبع الكاتب المبدع/ محمد فتحى ...

وأخيرا أهديه إلى أمة حبيبى محمد (صلى اللّه عليه وسلم)... وفى مقدمتهم أهل البلد الذى أعشق ترابه ...

مصـــــــر ...

لماذا فعـل ذلك؟!

١٩٨٩.. بـاريس السـاحرة.. ليـل وأضـواء وجمـال.. ورجـال ونساء يمرون من حول تلك الفتاة الشابة وهـي تعبر الطريق فـي صـمت متجهـة صـوب العنـوان الـذي التقطتـه مـن الجريـدة هـذا الصـباح.. شـاردة وهزيلـة والجـوع يعصـف بأحشـائها التـي تـئن طالبـة الطعـام.. يشـغلها ألـف سـؤال وسـؤال، فـلا تنتبـه لنظـرات المـارة المتطفلـة التـي تكـوي جسـدها الضـئيل، وتعليقـاتهم الخافتـة الساخرة على نقابها الأسود الواسع.

وأخيرًا توقفت وقد وصلت إلى مقصدها، فرفعت عينيها لتتأكد من رقم المبنى على الجدار، ثم عادت لتخفضـهما إلـى القصاصـة التـي اقتطعتهـا مـن الجريـدة لتطـابق العنـوان، قبـل أن تتنهـد فـي حرارة وقلبها يخفق في عنف ثم تدلف إلى المبنى.

اسـمها (نـدى).. فتـاة عربيـة رقيقـة كالفراشـة، وفـي عينيهـا السوداوتين البريئتين ترى العالم بأجمل ما فيه.. وحتى هذا العـالم لا يسـاوي نظـرة واحـدة مـن تلـك العينـين.. العينـين اللتـين اختفتـا خلـف النقـاب الأسـود الكبيـر، الـذي جعلهـا والـدها ترتديـه منـذ طفولتها ليمنح جسدها سترًا من العيون، ولكنـه لم يدر أنـه بهذا جعـل مـن طفلتـه مرمًـى مسـتباح لنظـرات الاسـتهجان والتقـزز والسخرية من الغرب كله..

رأت الكثيـر رغـم سـنوات عمرهـا العشـرين.. عرفـت الكثيـر وهي التي اضطرت لمواجهة العالم وحدها، بعد أن قضـي أمر الله في أبيها.. آخر من بقي لهـا فـي فرنسـا بعد وفـاة أمهـا وهـي طفلـة رضيعة.. ومن بعده لم يكن لها سوى إله رحيم تلجـأ إليـه ليحميهـا ويقيها الوحدة والغربة والعذاب.

ولكـن الأيـام تمـر والأمـوال تنفـد.. والغربـة لا تعـرف الرحمـة

بشاب قوى بالغ.. فما بالك بزهرة رقيقة مثلها؟!

لم يكن لها أن تعود لبلدها من جديد.. ذلك البلد الذي لا تعرف عنه سوى اسمه فقط.. لقد ولدت وتربت في باريس، وهنا عاش والداها ودُفِنا.. باختصار، إنها لا تعرف ماذا تعني لفظة وطن سوى هنا في فرنسا.

لم يكن أمامها سوى العمل حتى توفر قوت يومها.. تقدمت لعدة وظائف مرة واثنتين وثلاثة.. ولكن رفضها الأول بدعوى السن.. والثاني بدعوى النوع.. والثالث بدعوى الـ.. لا تعرف حقًّا.. أو بمعنى أدق عرفت فلم ترد أن تعترف بها لنفسها.. ليس سنك أو نوعك هي المشكلة يا صغيرتي.. بل دينك.. وَصْمَتُكِ التي وصموك بها، والعار الذي ألصقوه بجبينك دون ذنب اقترفتيه..

لم يبالوا باستعدادك للجهد والمثابرة في العمل.. لم يبالوا باحتياجك وأزمتك.. بل نظروا في اشمئزاز وتأفف لنقابك وهزوا رؤوسهم رافضين إياك في أدب بارد وجاف لا يعرف الشفقة أو الرحمة.

لكن الأمل تجدد بذلك الإعلان الصغير في ملحق الجريدة الصباحية.. إعلان يطلب فتيات يجدن اللغة العربية إجادة تامة، للعمل كمترجمات في أحد المكاتب بمرتب مغرٍ، ودون أي شروط إضافية.. لم تصدقي الخبر أبدًا.. ظللت لدقائق تنظرين إلى الجريدة في ذهول وقلبك لا يتوقف عن الخفقان في قوة.. أهذا ممكن؟.. إن الوظيفة قد فُصِّلت من أجلك أنت دون سواك.. يا لسعادتك.. لقد عاد الأمل من جديد ليدق بابك.. يا رب يا كريم.

أفاقت من شرودها الطويل لتجد نفسها واقفة في قلب المصعد وقد انفتح بابه عن مصراعيه بعد أن وصل للطابق الذي يوجد به المكتب.. فعدَّلت من نفسها بحركة سريعة قبل أن تخطو إلى

الخارج.. وعند باب المكتب المفتوح توقفت للحظة لتدير عينيها في أرجائه بنظرة سريعة قبل أن تدلف إليه بقدمها اليمنى - كما تعودت دومًا - متجهة إلى مكتب السكرتيرة المواجه للباب.. وهناك تنحنحت في ارتباك قائلة بالفرنسية:

- مساء الخير.

رفعت السكرتيرة رأسها اليها في حركة روتينية، ولكنها تجمدت فجأة لتتطلع إليها بنظرة طويلة صامتة دون أن ترد.. ومن تحت النقاب مطت الفتاة شفتيها في ضيق وقد توقعت تلك النظرة البلهاء المعتادة وكأنها قادمة من عالم آخر.. إلا أنها تغلبت على ضيقها بابتسامة حاولت أن تخرج باكبر قدر من الهدوء حتى وإن كانت غير مرئية وهي تقول:

- لقد أتيت بخصوص الوظيفة التي أعلنتم عنها في الجريدة.. اسمى (ندى سالم).. وأنا عربية في الأصل.

أومأت السكرتيرة برأسها في جمود وهي تقول ببطء:

- بالطبع.. هذا واضح.

سألتها ندى في جدية وقد قررت تخطي تلك النقطة:

- هل يمكنني إجراء المقابلة الآن أم إن هناك غيرى؟

تطلعت السكرتيرة إلى عينيها الدقيقتين في ثبات وهي تجيبها:

- بالعكس.. لا يوجد غيرك فأنت أول الواصلين.

قالتها ثم نهضت من مقعدها بحركة سريعة متجهة إلى حجرة مجاورة، ولكن قبل أن تفتح بابها استدارت إلى ندى قائلة في نبرة روتينية جافة:

- انتظريني قليلًا.. سأُعلم المدير بوصولك.

ثم فتحت الباب ودلفت إلى الداخل لتبتلعها الحجرة تمامًا، تاركة (ندى) تقف بالخارج وهي تشعر بالكثير من الحرج لهذا الأسلوب الفظ.. ولكن شعورها هذا لم يدم طويلًا، فقبل أن تنقضي دقيقتين كانت السكرتيرة تخرج من الحجرة لتقول لـ(ندى):

- للأسف.. إن المدير مشغول قليلًا.

أحبطتها تلك العبارة بشدة، وقضت على كل آمالها الواهنة في الوظيفة، رغم أنها كانت تتوقع عذرًا كهذا... ولكن كلمات السكرتيرة اللاحقة انتشلتها سريعًا من تلك الحالة وهي تقول:

- يمكنك الانتظار في الحجرة المجاورة ريثما ينهي الأعمال التي يقوم بها.. لقد أخبرته عنك وهو متحمس كثيرًا للقائك.

عاد الأمل ينتعش من جديد في صدرها وابتسامتها تتسع وتملأ وجهها إشراقًا مع تلك الكلمات، وقد أحست أن الفرصة لم تزل بعد أمامها لتحقق ما تصبو إليه.. لذا حين قادتها السكرتيرة إلى حجرة الانتظار قبل أن تعود إلى مكتبها من جديد كانت مستعدة لتنتظر الليلة بأكملها هنا في سبيل أن تقابل المدير.. فلا يوجد ما تقلق بشأنه في بيتها، وليس هناك من سيبحث عنها إن تأخرت.. لا يهمها كم ستنتظر.. المهم أن تفوز بتلك الوظيفة مهما حدث.

عشر دقائق.. عشرون.. ثلاثون.. ساعة كاملة.. بدأت (ندى) تتململ في مجلسها، وبدأ إحساس بالغضب الممزوج بالقلق يغزو أعماقها.. لقد كانت مستعدة لأن تنتظر حتى الصباح.. ولكن هل لهذا فائدة حقًّا؟.. هل سيرضى بها المدير أو يرضى حتى بمقابلتها بعد أن تبلغه السكرتيرة بأنها فتاة مسلمة وعربية؟.. أم سيتأفف من لقائها ويتركها هكذا طوال الليل؟.. عند تلك الفكرة التي جالت بخاطرها شعرت بالكثير من الضيق المتراكم طوال سنوات، والذي قارب على الانفجار معلنًا تمرده على تلك المعاملة التي لا يحتملها حيوان.. لقد شهدت الكثير من صلف وغرور الغرب، ولكنها لن تقوى على الاحتمال هذه المرة.. واتخذت القرار فعلًا بالمغادرة ولتذهب تلك الوظيفة إلى الجحيم.. ولكن صوت عقلها استعطفها أن تُحكِم سيطرتها على مشاعرها وتبقى قليلًا بعد، وهو

يقنعها بمدى احتياجها لتلك الوظيفة.. وعلى أية حال لربما كان المدير إنسانًا حنونًا أو راقيًا، لن يعاملها بهذا الصلف والتغطرس..

حسنًا إذن.. مهما كانت طبيعة هذا المدير فلتتحدث معه بنفسها ولتنهي تلك الحيرة التي تعصف بها.

نهضت من مقعدها بحركة واحدة متجهة في خطوات سريعة إلى باب الحجرة الذي أغلقته السكرتيرة من خلفها وهي تغادر، و...

وفجأة دوَّت تلك الصرخة المريعة قادمة من خارج الحجرة، فتراجعت للوراء في ذعر وقد هوى قلبها بين قدميها.. وقبل أن تقدم على حركة إضافية، عادت صرخة السكرتيرة لتدوي من جديد ومعها صيحات عالية من رجلين يتشاجران بالخارج.

تكاثرت قطرات العرق البارد على جبينها، وهي تقف متسمِّرة في مكانها لا تقوى على الحراك.. وبدا الارتباك واضحًا عليها وهي لا تعرف ما ينبغي أن تفعله بالضبط.. ولكنها في النهاية حسمت أمرها فاتجهت إلى الباب لترى ما يحدث بالخارج.. ولكن في اللحظة التي مدت يدها لتفتحه اندفعت السكرتيرة كالإعصار مقتحمة الحجرة بغتة لترتطم بـ(ندى) فتسقطا أرضًا معًا.. وبينما تأوَّهت الفتاة وهي تحاول النهوض من سقطتها، كانت السكرتيرة تهب واقفة على قدميها لتهرع إلى الباب وتغلقه، ثم تمد يدها لتجذب أحد المقاعد القريبة وتثبته خلف الباب وهي تلهث في عنف.

ومع الصيحات التي تدوِّي بالخارج وأصوات الشجار العالية، سألتها (ندى) في ذعر:

- ما الذي يحدث في الخارج؟.. وما الذي أصابك؟

قالتها وهي تتطلع إلى ملابسها الممزقة والدماء التي لوثت وجهها وقميصها الأبيض بشدة.. فأجابتها السكرتيرة وهي تصرخ

في ارتياع:
-لا وقت الآن للشرح.. سنموت يا حمقاء.. سنموت بسببك.
انعقد حاجبا (ندى) وقد صدمتها الجملة للغاية، فتعلقت بذراعها وهي تسألها من جديد:
- ماذا تعنين بهذا؟.. لماذا سنموت؟ ولماذا بسببي أنا؟
في تلك اللحظة دوَّى صوت ضربة مكتومة مصحوبًا بصيحة ما بالفرنسية لم تفهما معناها، قبل أن يعقبها صرخة ألم طويلة جعلت السكرتيرة تصرخ بدورها في هلع:
- يا إلهي.. لقد قتل المدير.. قتل المدير.
وهنا وصل التوتر لذروته عند (ندى)، فجذبتها من ذراعها في حدة وهي تهتف بها:
- أريد أن أفهم ما الذي يحدث بالضبط؟.. أخبريني.
التقطت السكرتيرة أنفاسها بصعوبة من بين دموعها المنهمرة وأجابتها وهي تنشج:
- إنه (بيير).. الموظف الذي كان يعمل معنا في السابق.. إنه هنا ويريد قتلك.
هتفت (ندى) في ذعر:
- يريد قتلي؟.. لماذا؟.. أنا لا أعرفه ولا أعرفكم حتى.
أومأت السكرتيرة برأسها مؤمِّنة على كلامها وهي تزدرد ريقها، قبل أن تقول بسرعة:
- أعلم هذا.. ولكنه ينوي الانتقام منك لأنك.. لأنك عربية.
اتسعت عينا (ندى) وهي لا تصدق ما تسمعه بأذنيها.. أهذا معقول؟.. سيقتلها هذا الرجل فقط لأنها عربية؟.. هذا جنون.. جنون.
وبدون أن تشعر أخذت تردد الكلمة الأخيرة مرات ومرات وهي تدفن وجهها بين كفيها غير مصدقة لما يحدث.. ولكن فجأة وجدت جسدها ينتفض في قوة مع صوت تلك الضربة التي

انهالت على الباب.. قبل أن يعقبها ضربة ثانية وثالثة دون توقف.. كان يبدو أن هذا الرجل (بيير) قد تغلب بالفعل على المدير، وينوي أن يقتحم الحجرة لينفذ انتقامه.. وبذعر لا محدود صرخت بها السكرتيرة:

- لا تقفي هكذا.. ساعديني لنسد الباب.

هرعت إليها (ندى) لتلقي بكل ثقلها على الباب بجوار السكرتيرة لتصد ضربات الرجل المتواصلة عليه.. وفي خضم كل هذا هتفت (ندى) بالسكرتيرة:

-ولكني لا أفهم.. لماذا يريد قتلي أنا؟.. وهل يلاحق كل الفتيات العرب في باريس؟

هزت السكرتيرة رأسها نافية وهي تجيبها بانفعال:

- لا.. لقد أصابه الجنون منذ أن تم فصله قبل شهرين.. تشاجر مع امرأة عراقية كانت تعمل معنا بالمكتب وضربها ففصله المدير بسبب ذلك.. وتركته زوجته بعدها لأنه فشل أن يجد مصدر رزق آخر، في الوقت الذي لم يرض أحد بتوظيفه بعد تلك الحادثة.. بعدها لم يسمع عنه أحد لمدة شهر كامل، قبل أن تجد الشرطة السيدة العراقية مقتولة في شارع جانبي مهجور.. وجَّهت إليه الشرطة اتهامها وألقت القبض عليه، وبرغم يقيننا أنه هو من فعلها، بل وشهادتنا الجماعية ضده، إلا أن الشرطة أطلقت سراحه لعدم وجود دليل يكفي لإدانته.

انهالت ضربة أخرى على الباب لترجه بعنف، فعادت الفتاتان لتستميتا في إبقائه ثابتًا أمام تلك الضربات.. قبل أن تسألها (ندى) في حيرة ممزوجة بالخوف:

- وماذا عني؟.. لماذا يريد قتلي أنا؟

ازدردت السكرتيرة ريقها وهي تجيب:

- لأنك الموظفة الجديدة التي ستشغل مكانها هنا.. ولأنك

عربية مثلها.. إنه ينوي الانتقام من كل النساء العرب اللاتي كن السبب في تدمير حياته و....

بترت حديثها بغتة حين هوى نصل السكين الحاد من الخارج ليشق الباب الخشبى بين جسدي الفتاتين بالضبط...حينها ارتفع صراخ السكرتيرة أكثر وقد فقدت أعصابها تمامًا.

أدرات (ندى) عينيها في المكان لتبحث عن سلاح ما يساعدهما.. ولكنها لم تجد سوى المقاعد المنتشرة في تلك الحجرة المخصصة للانتظار.. وقبل أن يغلبها اليأس طرأت إلى ذهنها فكرة.. فأسرعت لتحمل مقعدًا من المقاعد الموجودة في الحجرة قبل أن تهرع به إلى الباب وهي تصرخ في انفعال:

- ابتعدي.

تراجعت السكرتيرة قليلًا إلى الوراء فخف الثقل المواجه للباب.. وكما توقعت.. مع أول ضربة وجهها الرجل إليه من الخارج انفتح قليلًا، لتمتد عبره قبضته الممسكة بالسكين في إحكام، وهو يحاول أن يغلب السكرتيرة ويدفع الباب بكل قوته ليفتحه.

وبكل الانفعال والذعر والغضب الذين انفجروا في أعماقها، رفعت المقعد لتهوي به على يده بكل ما أوتيت من قوة، ليصرخ الرجل عندها صرخة ألم عاتية.. فعادت من جديد لترفع المقعد وتهوي به للمرة الثانية على يده.. وفي تلك المرة سقطت من يده السكين، فأسرعت السكرتيرة محاولة التقاطه، لولا أن صرخت بها (ندى):

- لا أيتها الحمقاء.

ولكن صرختها للأسف أتت متأخرة.. ففي اللحظة التي أمسكت فيها السكين، هوت يد الرجل السليمة لتمسك بمعصمها في قوة محاولًا إخراجها من الحجرة.. وصرخت السكرتيرة بمنتهى العنف، ومدت يدها الحرة محاولة التعلق بـ(ندى) التي

أمسكت بها بالفعل، لولا أن جذبها الرجل في شراسة غير طبيعية من الفتحة الصغيرة للباب لتعبر خلالها وهي تصرخ بكل قوتها.. قبل أن ينغلق الباب خلفها في عنف.

وفي ارتياع صاحت (ندى):

- لا.. كفى.. أرجوك كفى.

تعالى صراخ السكرتيرة من وراء الباب وهي تهتف بها مستنجدة بينما قرب الرجل فمه من الباب وهو يهتف بـ(ندى):

- اخرجي وإلا سأقتل صديقتك.. هيا.

انهمرت الدموع من عيني (ندى) وهي تهتف به:

- أرجوك.. ارحمني.. لا ذنب لي في كل هذا.

تناهى إلى مسامعها صوت ضربة مكتومة قادمة من الخارج ليعقبها صرخة ألم رهيبة من السكرتيرة، بينما عاد الرجل ليصيح من جديد في جنون:

- سأظل أمزق لحم صديقتك حتى تخرجي أيتها العربية اللعينة.. هل سمعتي؟!

لطمت (ندى) خديها بكفيها في قوة وهي تهتف:

-أنا لست عربية.. أقسم لك على هذا.. صدقني.. لست عربية.. لست عربية.

ظلت تردد الكلمة الأخيرة وهي تهوي أرضًا وقد عجزت ساقيها عن احتمالها.. ومن خلف كفيها اللتين دفنت فيهما وجهها انهمرت الدموع منها كالمطر.. لم تكن تدري ماذا تفعل.. ستموت حتمًا إن خرجت إليه، وفي نفس الوقت لا يمكنها أن تترك الفتاة بالخارج لتلاقي التعذيب بسببها.. يا إلهي الرحيم.. أي موقف هذا؟

كل ذلك بسبب جنسيتها ودينها.. طوال حياتها وهي تكره هذين الاثنين، والآن تكرههما أكثر من أي مرة.. لطالما تمنت في كل لحظة ضعف مرت عليها أن تتنصل منهما وتلقي بنفسها في أحضان الغرب لتقايضهما بالوظيفة والمال والحياة التي تتمناها..

ولكنها لا تلبث أن تتذكر وصية أبيها لها بأن تتمسك بدينها ولا تفرط فيه مهما حدث.. أما الآن فهي على استعداد لتفرط فيه بالفعل لتكسب ما هو أهم وأغلى من الوظيفة أو بعض المال.. حياتها نفسها و...

دوت من جديد تلك الضربة المكتومة، ومعها ارتفعت صرخة الألم العاتية من السكرتيرة أكثر فأكثر، لتنتزع (ندى) من لحظة شرودها الطويلة وتفقدها آخر ما تبقى لديها من عقل وحكمة، فأخذت بدون وعى تصرخ في ارتياع..

وتصرخ..

وتصرخ..

وفجأة حانت منها التفاتة إلى ملابسها السوداء ونقابها الواسع الذي غطى جسدها.. فهبت واقفة على قدميها وهي تنزعه عنها بينما تهتف في هيستيريا لا مثيل لها:

- أنا لست عربية.. أرأيت؟.. أنا لست عربية ولست مسلمة.. أنا مثلكم.. مثلكم.

تخلصت من ردائها الأسود حتى لم يعد يستر جسدها سوى القليل من الملابس التي تظهر أكثر مما تستر.. وبدون أن تعي ما تفعل، وكأن الخوف والذعر قد أعماها تمامًا، خرجت من الحجرة وهي تصرخ في انفعال وهيستريا:

- أرأيت؟!.. أنا مثلكم.. أنا لست مسلمة ولا عربية.. أرجوك لا تقتلني.. أرجوك.. أنا..

بترت جملتها بغتة، لتقف متسمرة في مكانها دون أن تجرؤ على النطق.. وتجمد الموقف تمامًا في الحجرة بكل ما فيه.. ومن فيه.

ففي حين وقفت (ندى) بملابسها الخفيفة الشفافة وباقي جسدها عاريًا تمامًا، وقد شحب وجهها بشدة حتى قارب وجوه الموتى.. وقف الرجل المدعو (بيير) وبجواره السكرتيرة وهو يضع يده

المصابة على كتفها، بينما يبتسمان في تشفٍّ واضح، ومن خلفهما وقف عدد محدود من الرجال حول معدات تصوير وكاميرات وهم ينظرون إلى الموقف مدهوشين تمامًا.

ولثوانٍ ساد الصمت الحجرة قبل أن يشقه (بيير) قائلًا ببرود:

- لقدً كدت تكسرين يدي يا فتاة.. ولكن أهنئك.. لقد كانت حلقتك أقوى حلقات الموسم.

قالها ورفع يده السليمة مشيرًا للكاميرا كي تنظر إليها، فتطلعت إليها (ندى) بعينين كالزجاج وهي بعد لم تستوعب ما يحدث من حولها.. وكأنه قد التقط حيرتها تلك، فأشار بحركة خفية للمصور أن يوقف الكاميرا قبل أن يقول في تهكم:

- كيف حدث هذا، أليس كذلك؟

ترقرقت دمعة في عينيها لم تلبث أن سالت ساخنة على وجنتيها دون أن تجيب بينما أكمل هو بنفس السخرية:

- هذا سهل جدًّا.. إعلان صغير في الجريدة جاءنا على إثره عشرات الفتيات العرب الراغبات في العمل.. وفعلنا معهن بالضبط كما فعلنا معك.

ثم ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتيه وهو يضيف:

- لكن الحق يقتضي أن أقول إن واحدة منهن لم تتصرف كما فعلتِ منذ قليل.. لقد كانت حركة غير متوقعة، وإن جاءت في صالح البرنامج تمامًا.. هل عرفتِ الآن لماذا أسميتها أقوى حلقات الموسم؟

تطلعت (ندى) إلى السكرتيرة وهي تزيل آثار الدماء الزائفة من وجهها بينما تبتسم سخرية، قبل أن تنقل بصرها مجددًا إلى (بيير) الذي أشار للجدران من حوله متابعًا:

- أما هذا فهو استديو خاص.. لم يكن ليسمع بصراخك أحد يا عزيزتي حتى ولو فجرتِ قنبلة هنا.. خدعة متقنة، أليس كذلك؟

وجدت (ندى) نفسها عاجزة عن الوقوف، فتهاوت على ركبتيها أرضًا وهي تمد يديها لتغطي بهما كتفيها العاريين الذين تشاركا مع باقي جسدها شبه العاري ليصنعا مرمى مستباحًا لنظرات المصورين الشهوانية.

وكأن هذه كانت الإشارة لإنهاء الموقف، فأومأ (بيير) إلى المصور ليعيد تشغيل الكاميرا من جديد، قبل أن يتقدم بضع خطوات من (ندى)، ثم يميل ليطوق بذراعه كتفيها العاريين قائلًا بابتسامة باردة كالثلج وهو يواجه الكاميرا:

- أعزائي المشاهدين.. كنتم مع أقوى وآخر حلقات الموسم من برنامج (لماذا فعل ذلك؟).. طابت ليلتكم.. وداعًا.

الباشـــا

السيد /.....

النائب العام بجمهورية مصر العربية..

تحية طيبة وبعد..

مقدمه لسيادتكم الملازم أول/ رؤوف طه البغدادي.. قسم شرطة (....) بإحدى المحافظات النائية على حدود البلد.

أكتب لسيادتكم لعلمي البالغ بمدى أهمية القضية التي نحن بصددها.. أكتب إليكم وأنا أختبئ بأحد الأماكن المجهولة في بلدنا، والتي لا يعلم عنها سوانا من رجال الشرطة العتيدين.

إن وقتكم الثمين لا يسمح لي بالاستطراد أكثر من اللازم، خاصة وأنا أعلم مدى احتياج قضيتي الشائكة إلى كل دقيقة من وقتكم الكريم.. لذا سأبدأ مباشرة وأقص على مسامعكم كل ما حدث بصدق وبمنتهى الدقة.

بدأ الأمر في تلك الليلة السوداء من ليالي الصيف شديدة الحرارة، كان الجو مقبضًا بسبب الحر والملل، فليلة كهذه لم يكن العمل فيها كثيرًا، بالأحرى لم يكن فيها من عمل أصلًا، ولربما هذا فقط ما خلق تلك الأحداث.. الملل ولا شيء سواه.. الملل الذي جعل (زين) رئيسي في القسم يستدعيني قائلًا:

- ما هذا الجو يا رؤوف؟!.. أنا لم أعتد هذا.. تصرف.

أحنيت رأسي وأنا أقول في احترام:

- أوامر سعادتك يا فندم.

لم يكن للجملة من معنى.. فليس بإمكاني أن أضغط زرًّا لأجعل الجو أكثر متعة له، ولكنه أسلوب الاستعباد الذي ابتدعه العرب وبقي في نفوسنا جميعًا حتى بعد أن قضى عليه الإسلام.

وضع (زين) ساقيه على المكتب أمامه وهو يقول في تراخي:

- لا أعلم كيف سنقتل الوقت يا (رؤوف).. الليلة ما زالت طويلة وبرامج التلفاز شديدة الملل.. ماذا تقترح لكي تمر الليلة دون أن يقتلنا الضجر؟

حاولت ان أبحث في ذهني عن شيء جديد لفعله، ولكني عجزت عن هذا، فبقيت واقفًا متسمرًا أتطلع إليه وهو يجلس تلك الجلسة الكسول مغمضًا عينيه، بينما القلق ينهش قلبي.. خبرتي الطويلة معه علمتني أن صمته وسكونه لا ينجبان سوى الكوارث، والله وحده يعلم ما هي المصيبة القادمة الآن.

شبك (زين) كفيه خلف رأسه وزاد من جلسة استرخائه تلك، ثم قال في بطء شديد:

- (رؤوف).. ماذا فعلنا بتلك الفتاة التي قبضنا عليها بالأمس؟

امتقع وجهي بشدة وترددت طويلًا قبل أن أجيب بتلعثم واضح:

- لقد.. لقد أغلقنا المحضر يا سيدي.. وهي بالزنزانة الآن تنتظر أن يتم عرضها على النيابة.

ابتسم (زين) كاشفا عن أسنانه الصفراء وهو يردد في استمتاع:

- جميل.. جميل.

قالها ثم التقط مفاتيح حجرة الاستراحة الخاصة به من على سطح المكتب، ليلقيها لي قائلًا:

- أخرجها من زنزانتها وأحضرها إلى حجرتي بالأعلى.. حالًا.

وجدت الدم يهرب من وجهي بغتة وأنا أتساءل في جزع:

- لماذا؟!.. ماذا ستفعل بها يا سيدي؟!

استدار محدقًا إلي في استغراب وهو يستنكر اعتراضي المفاجئ ولأول مرة لأمر من أوامره، فهرعت ناحيته وأنا أضيف في جزع:

- يا سيدي.. إن لي أخوات في مثل سنها بالضبط.. فكيف

ترضى لي أن أقبل بهذا؟.. قد نفعل أي شيء ولكن ليس الزنى.. أرجوك.

هز (زين) رأسه في سخرية، وهو يقول في دهشة مصطنعة:

- زنى؟.. من تحدث عن الزنى هنا يا (رؤوف)؟.. أنا لا أغضب الله أبدًا يا رجل.. كل ما في الأمر أننا سنقتل الوقت فقط ونتسلى.

ثم اكتسى وجهه بالجدية فجأة وهو يقول بالصرامة:

- والآن يكفي هراء وافعل ما أمرتك به.. هيا.

تطلعت إليه لحظة مترددًا، قبل أن أومئ برأسي في خوف وأستدير مغادرًا الحجرة لأنفذ ما أمرني به، ولم تمض عشر دقائق بالفعل حتى كنت أصطحب الفتاة إلى الأعلى.. إلى مصير لا يعلمه سوى الله وحده.

وما إن دخلنا الحجرة حتى وجدته ينهض من على السرير الصغير الموجود بها وهو يبتسم لنا ابتسامته المقيته تلك، قبل أن يلقي إلي بهاتفه الجوال قائلًا بلهجة آمرة:

- (رؤوف).. لقد ضبطت الهاتف على نظام مسجل الفيديو.. قف في هذا الركن هناك وابدأ التصوير فحسب.

نقلت الفتاة بصرها بيننا وهي تردد في حذر خافت:

- ماذا هناك يا باشا؟.. ما الذي يحدث بالضبط؟

قبض (زين)على معصمها في قوة وهو يقول:

- ليس هذا من شأنك أيتها العاهرة.. فقط توقفي عن الثرثرة و...

ومال بوجهه ناحيتها وهو يكمل:

- واخلعي ملابسك.

اتسعت عيناي في ارتياع وكاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان وأنا أقول في ذعر:

- ماذا؟.. ما الذي تقوله يا سيدي؟.. لا يحق لنا هذا.. لا يحق

لنا هذا.
هتف (زين) في ثورة:
- اخرس أيها الأحمق.. ابدأ التصوير ولا تتدخل فيما يحدث.. مفهوم؟
ابتلعت باقي كلماتي وأنا أطرق بوجهي أرضًا.. بينما انهمرت الدموع أمطارًا من الفتاة المسكينة وهي تصرخ:
-لا.. أرجوك يا باشا.. أرجوك.. لا تفعل بي هذا.. ارحمني.
صفعها (زين) بمنتهى القسوة وهو يهتف بها:
- توقفي عن الصراخ أيتها اللعينة وإلا قطعت لسانك.. نفذي ما أمرتك به فحسب.. هيا.
وضعت الفتاة يدها على فمها في ذعر بالغ وعيناها لا تتوقفان عن البكاء بحرارة، بينما جسدها الضئيل يرتجف في عنف ليس له مثيل، دون أن تتحرك من مكانها.. وهذا ما جعل (زين) يفقد أعصابه وهو يراها لا تحرك ساكنًا، فجذبها من شعرها بقسوة وهو يقول في انفعال شديد:
- اسمعيني جيدًا أيتها الحقيرة.. لا أحب أن أنتظر طويلًا ولا أحب أيضًا أن أكرر أوامري مرتين.. لذا سأعطيك فرصة واحدة لتنفذي ما أمرتك به، وإلا بشرفي سأحرق وجهك الجميل هذا.. أتفهمين؟

تفجر الذعر من عيني الفتاة ومنعها من أن تبعد يدها عن فمها خشية أن يصدر أي صوت منها فيعاقبها (زين) بلا رحمة.. وفى ألم مدت يدها المرتجفة لتخلع سترتها وهي لا تكف عن الارتجاف، بينما تتابعها نظرات (زين) الشهوانية الوقحة.. وكادت تشرع في باقي ملابسها لولا أن دخل المقدم (سعد) الحجرة بغتة وهو يدندن بلحن شعبي مشهور، ولكنه ما إن وجدنا حتى تجمد عند الباب مبهوتًا مما يرى.. ولثوان تجمد الموقف

تمامًا ونحن نتطلع إلى بعضنا البعض في جمود، قبل أن يشق (زين) الصمت قائلًا في ارتباك واضح:
- (سعد) يا صديقي.. أي رياح ألقت بك إلينا اليوم؟
لم يجب (سعد) عن سؤاله وهو يتقدم إلى الداخل قائلًا في شك:
- دعك مني الآن وأخبرني.. ماذا تفعلان بهذه الفتاة هنا؟
رد (زين) بسرعة:
- لا شيء يا صديقي.. لا شيء.. لقد كنا نحقق معها فحسب.
عقد (سعد) حاجبيه وهو يتساءل بريبة:
- تحققان معها؟.. هنا؟
هم (زين) أن يجيب لولا أن اندفعت الفتاة هاربة من بين يديه لتحتمي بـ(سعد) وهي تصرخ في انفعال:
- لا يا باشا.. لقد أجبروني على الحضور هنا لينزعوا عني ملابسي.. لقد أجبروني.. أقسم بالله هذا هو ما حدث.
تطلع (سعد) إلينا لحظة في ذهول ثم قال من بين أسنانه بمقت الشديد:
- أيها الحقراء.. كيف سولت لكم أنفسكم فعل هذا بفتاة لا ذنب لها؟
لوح (زين) بذراعه هاتفًا في استنكار:
- لا ذنب لها؟!!.. إنها عاهرة.. عاهرة.. ألا تدرك هذا؟
هتف (سعد) في غضب:
- حتى وإن كانت كذلك.. فلا تستحق أبدًا أن نعاملها بتلك الطريقة.. أهذا ما أمر الله به؟.. أن نذل المذنب ونهينه؟.. ألم نقسم على حماية الضعيف وألا نستعبد أحدًا قط؟ أخبراني.
أشاح (زين) بوجهه بعيدًا في استخفاف دون أن يعلق بشيء، بينما تطلع إليه (سعد) لحظات ثم قال في خفوت وبمنتهى الحسرة والأسف:
- يا للخسارة يا صديق العمر.. يا للخسارة.. لقد عرفتك دومًا

قاسيًا عديم الشفقة أو الرحمة، ولكني لم أظن لحظة أنك بهذه الحقارة.

قال تلك الكلمات ثم التفت إلى الفتاة مضيفًا في صرامة:

- حقك لن يذهب هباء يا فتاة.. جريمتك سيعاقبك عليها القانون، بالضبط كما سيعاقبهما على جريمتهما في حقك.. هيا.. ارتدي ملابسك فسترحلين معي.

تساءل (زين) في قلق واضح:

- (سعد).. ماذا تنوي أن تفعل؟

رفع (سعد) عينيه إليه وهو يجيب في حزم:

- لقد رأيت جريمة بعيني يا (زين)، ولن أصمت عنها مطلقًا.. سآخذ الفتاة وأذهب إلى أعلى جهة مسئولة.. إلى وزير الداخلية نفسه لو اقتضى الأمر.. المهم أني لن أكون شيطانًا أخرس أبدًا.

أسرع (زين) يتعلق بمعصم الفتاة وهو يهتف في ثورة:

- مستحيل.. لن أدعك تدمر مستقبلي من أجل فتاة لعينة كهذه.. لن يحدث هذا إلا على جثتي.. أفهمت؟

أخرج (سعد) مسدسه من غمده وهو يقول في صرامة لم أعهدها فيه من قبل:

- اتركها يا (زين).. وإلا ستعبر فوق جثتك كما قلت.

نقل (زين) بصره بينه وبين المسدس وهو يقول في قلق:

- (سعد).. لن تفعل بي هذا أليس كذلك؟.. لن تدمر مستقبلي من أجل فتاة لعينة كتلك.. انظر إلي، أنا (زين).. صديقك الوحيد.

تطلع إليه (سعد) في شفقة، ثم أغمض عينيه بقوة وهو يجاهد لكبت مشاعره المتناقضة في أعماقه.. أحسست بالصراع الذي يدور في داخله، وتمنيت للحظة لو يرجِّح كفة صديقه عن كفة تلك الفتاة.. ولكنه فتح عينيه وقد حسم أمره تمامًا، فاعتدل في وقفته وهو يحكم قبضته الممسكة بالمسدس قائلًا:

- أنا آسف يا صديقي، ولكنه العدل الذي لا تعرف عنه شيئًا..

هيا أيتها الفتاة.. سنرحل من هنا.

فـي تلـك اللحظـة يـا سـيدي أدركـت أن مسـتقبلي وسـمعتي سيدمران فعلًا إن سمحنا لـ(سعد) بتنفيذ كلامـه.. وأن الأمـر لـن يستغرق طويلًا قبل أن أجد نفسي معزولًا من رتبتي التي طالما تفاخرت بها أمام الناس، بل وقد أتشارك في إحدى الزنزانات مع (زيـن).. لكـل هـذا يـا سـيدي وجـدت نفسـي وبـدون وعـي ألقـي بالهـاتف الـذي لـم أدر لـم واصـلت التصـوير بـه كـل تلـك المـدة، وأضرب (سعد) على مؤخرة رأسه دون أن ينتبه بكل ما أوتيت من قوة.

كانـت الضـربة شـديدة بالفعـل لدرجـة جعلـت رأسـه يـرتج للحظات، ولكنها كانت كافية كي ينتزع (زين) المسدس من يده، ثم يتراجع للخلف وهو يضحك ساخرًا ويقول:

- يا للشرفاء.. يبدأون دومًا بشعارات فارغة وينتهون جميعًا نهاية واحدة.

استند (سعد) إلى الجدار وهو يقاوم دوار رأسه بشدة قبل أن يقول:

- قتلي هي الطريقة الوحيدة لتجعلني أصمت يا (زين).. لم تَرِد للفتاة أن تغادر؟.. حسنًا إنها معك.. ولكنك لن تقدر على منعي الآن.

قالها ثم أدار ظهره متجهًا إلى الباب، فصرخ (زين) في ثورة:

- توقف يا (سعد) وإلا قتلتك.. توقف.

لم يعره أدنى اهتمام وهو يكمل مترنحًا نحو الباب.. وهنا حدث بالضبط ما توقعته وما رأيته في عيني (زين) وهو يرفع المسدس ليصوبه إليه ويصرخ في جنون:

- أنت أجبرتني على هذا يا (سعد).

ومع آخر حروف كلماته، ضغط على الزناد لتنطلق الرصاصة تشق فراغ الحجرة وهي تعرف هدفها جيدًا.

كان (زين) - والحق يقال - بارعًا في التصويب، وخاصة على هدف قريب ومرئي مثل (سعد)، لذا كانت نسبة الخطأ معدومة تمامًا.. لولا هي.. هي فقط من تدخل.. الفتاة التي نسيها الجميع وسط هذا الصراع، وجدناها تقف حائلة بين الرصاصة وبين (سعد).. جسدها الذي باعته بأي ثمن ولأي إنسان، استخدمته للمرة الأولى والأخيرة في عمل نبيل كهذا.. وقفت في بسالة لتزود عمن حمى جسدها من الانتهاك، بينما عيناها لا تقول سوى شيء واحد:

- إنه أقل ثمن أقدمه لك.. يا باشا.

سقط جسدها صريعًا بين يدي (سعد) الذي التقطها وجلس على ركبتيه ليرقدها أرضًا في حنوٍّ بالغ.. وبينما يحدق (زين) إليهما في ارتياع وكأنما لا يصدق ما ارتكبته يده، رفع (سعد) عينيه إليه وقد امتلأتا بالدموع ليقول في مقت شديد:

- أيها اللعين.. انظر لما فعلته بنا جميعًا.. سأقضي عليك.

قالها وهو ينهض بغتة لينقض عليه محاولا انتزاع المسدس منه.. كانا يتقاتلان في عنف وشراسة وكلاهما يجاهد للإمساك بالمسدس من الآخر.

لم أقدر على التدخل في هذا الصراع.. فقط تراجعت إلى الوراء في خوف وأنا أصيح بهما:

-توقفا كلاكما.. توقفا.

ورغم هذا كنت ما أزال ممسكًا بالهاتف وألتقط كل ما يحدث في هذا الجنون.. وبرغم أني كنت واثقا أن أحدًا لن يسمع بما يجري هنا، وأن القسم في مكان منعزل تمامًا عن الأحياء، إلا أني التصقت بالحائط من خلفي وأنا أتلفت حولي خشية أن يقتحم أحد

المكان بغتة ليكتشف ما يجري.
أمسك (سعد) بالمسدس بكلتا يديه محاولًا انتزاعه من يدي (زين) الذي كان قابضًا عليه في استماتة.. كان هذا حين دوت الرصاصة الثانية.. رصاصة لم أدرك من وجهها إلى من، وقد انحشر المسدس بين جسديهما.. تسمر الاثنان والذهول يملأ وجهيهما لحظات قبل أن يسقط أحدهما أرضًا والدماء تنزف منه بغزارة، بينما يشي وجهه بوضوح أنه قد فارق الحياة.
وحين اعتدل (زين) في وقفته ممسكًا بالمسدس والارتياع يغزو قسماته، أدركت الكارثة التي وضعنا فيها، وأدركت أيضًا أنه في ليلة واحدة ارتكب جريمتين بشعتين دون أدنى ذنب للضحيتين فيهما.

أما أنا فقد حاولت التماسك قدر الإمكان.. ليس عن شجاعة مني أو جرأة، ولكن لعلمي بما سيحدث لاحقًا.. كنت أعلم أن (زين) سيفيق.. يجب أن يفيق.. شخصية شيطانية مثله قد تصاب بالشلل لحظات، ولكنها لا تفقد صوابها كثيرًا.. كنت أعلم أنه سيكتشف كون المسدس في يده هو في الأصل ملك لـ(سعد).. كنت أعلم أنه سينظفه جيدًا من بصماته قبل أن يضعه في يد صاحبه، ثم يملأ الدنيا صراخًا عن صديق عمره الذي جلب فتاة ليل من زنزانتها إلى حجرة الاستراحة لغرض لا يعلمه سوى الله، ولكنه اكتشف الجريمة بالصدفة البحتة وحدث ما حدث.. لن يحاسبه أحد ولن يوجه له أي اتهام.. وربما منحوه حتى وسام شجاعة ما.. فقط وبعد كل هذا سيكتشف أن شاهد الإثبات الوحيد في الموضوع قد اختفى ومعه دليل الاتهام له.. سيبحث عني في كل مكان لإسكاتي أو حتى لقتلي وحرق كل ما صورته تلك الليلة.. ولكنه لن يجدني، فلن أغادر سوى مع أحد رجالك يا سيدي النائب، فأنا لم ولن أطلع مخلوقًا على مكاني سواك.

قد تتعجب مما حكيت، خاصة وهو يدينني كما يدين (زين)، ولكن ينبغي أن تعلم أني لست بمغتصب ولا بقاتل، إنما أنا مجرد عبد لعين للسيد المطاع.. عبد أجرم في حق نفسه وفي حق الله عز وجل.. كل ما حدث الليلة فجر في أعماقي ما كان يلقنه إياي أبي الشيخ وأنا بعد طفل صغير.. الشرف والحق والعدل.. تلك الكلمات التي سخرت منها.. ولكني وجدتها الليلة تتجسد في صورة ضابط مثلي.. ضابط لم يكن يعرف تلك الفتاة في حياته قط.. بل ولم يكن يعرف حتى اسمها.. ولكنه لم يكن يحميها هي، بل كان يحمي الأخلاق والقيم قبل أن تموت ونرقص على قبورها.

إني أتوسل إليك يا سيدي النائب أن تسجنوني.. لا لا.. بل اشنقوني.. اعدموني..اقتلوا فيَّ الصمت والخضوع.. اقتلوا فيَّ الشيطان الأخرس الذي رفض (سعد) أن يكونه.. ولكن أرجوكم ألا تبقوني لحظة واحدة في هذا البلد..

البلد الذي لا يحيا فيه بشر ولا يحكمه إنسان...

بل يحيا فيه عبيد.. ويحكمه فقط...

الباشا...

المذنب/ رؤوف طه البغدادي

صديقتـي الأمريكـية

صديقتي الأمريكية امرأة مثابرة جدًّا.. تعرفت عليها منذ سنتين في آخر زيارة لي إلى الولايات المتحدة.. عرفت منها أنها تعيش وحيدة مع طفليها الصغيرين في شقة بسيطة بنيويورك، بعد أن هجرها زوجها وتركها تتولى شئون الأسرة بمفردها.. ذاقت الأمرين وحاربت حتى وجدت وظيفة متواضعة يكفي مرتبها الضئيل لسد رمقها هي وأطفالها.. ولكن طموحها جعلها تنتقل إلى وظيفة أخرى ثم أخرى.. وهكذا حتى استقر بها الحال في وظيفة مقبولة نوعًا بإحدى أشهر الجرائد اليومية ببلدها.

صديقتي الأمريكية امرأة طموحة جدًّا.. عدت لبلدي وهي في أول أيامها بالجريدة، وكنت أتابع أخبارها أولًا بأول من خلال الخطابات التي كنا نتبادلها معًا، وفي آخر خطاب بيننا علمت بأن جهدها ومثابرتها جعلاها تتدرج في العمل حتى احتلت منصبًا مهما في الجريدة خلال عام واحد فحسب.. كنت سعيدًا حقًّا من أجلها وأنا أراها تحقق أحلامها وتعوض نفسها وأسرتها عما عانته خلال الفترة السابقة.. ولكن بعد فترة أخذت الخطابات منها تختفي شيئًا فشيئًا حتى انقطعت تمامًا.. في الحقيقة لم أكترث كثيرًا للأمر، خاصة وأنا أذوب في أعبائي ومسئوليات أسرتي، حتى نسيت أخبار صديقتي، ثم نسيتها هي نفسها.

صديقتي الأمريكية امرأة وفية جدًّا.. برغم مرور عام كامل على آخر خطاب لها، إلا أنها لم تنسني قط.. هذا ما عرفته وأنا أجد خطابها الجديد ينتظرني حين عدت من العمل.. أخبرتني فيه كم اشتاقت لي ولرفقتي، وأنها - على عكسي - لم تنسني طوال تلك الفترة، ولكنها ظروف العمل فحسب.. وما أعاد الاتصال بيننا

إلى الحياة هو رحلتها القادمة إلى الشرق الأوسط، وتحديدًا إلى مصر، وأنها تريدني أن ألقاها لأصطحبها في رحلة لا تُنسى بين حارات المحروسة.

صديقتي الأمريكية امرأة جميلة جدًّا.. لكم تغيرت بشدة في تلك الفترة القصيرة، حتى أني لم أتعرفها في البداية وأنا أنتظرها في المطار.. كانت بالطبع على قدر من الجمال في السابق، ولكن تلك المرة كان جمالها لا يصدق.. مثال حقيقي للأنوثة الطاغية، بقوامها الممشوق وجمالها الخلاب الذي أظهره فستانها الأسود الضيق.. ومنذ اللحظة التي غادرنا فيها المطار لم أعد كما كنت من قبل، متزنًا هادئًا ورصينًا.. بل صرت كائنًا لا يفعل شيئًا سوى أن يفغر فاه في انبهار ويغرق في البحر الأزرق العميق الذي يسكن عينيها.. تلتفت إلي فجأة فتضبطني وأنا أنظر لها مسحورًا ولا أكاد أسمع منها حرفًا، حينها تبتسم ابتسامتها الآخذة دون أن تعلق بشيء، وكأنها تستمتع بنظراتي الملهوفة إليها ولا تزعجها.

صديقتي الأمريكية امرأة مثقفة جدًّا.. كانت تعلم الكثير حقًّا عن مصر ومدنها وشوارعها.. زرنا أماكن كثيرة قرأت عنها وتمنت أن تراها على الطبيعة، ولكني جعلتها ترى في رحلتنا معًا، أماكن مجهولة وسرية لم تكن تعرفها من قبل.. لم تكف عن الشعور بالانبهار والحبور في كل مكان نذهب إليه، وكأنها وجدت كنزًا لها وحدها.. أصدقكم القول أني برغم زيارتي لمعظم تلك الأماكن مئات المرات من قبل إلا أني لم أدرك أنها بهذا السحر والجمال سوى في تلك الزيارة، وأنا أراها لأول مرة بعيني هذا الملاك الجميل.. يا إلهي.. لماذا لم تكن بهذا الجمال منذ سنتين فحسب قبل أن أتزوج؟

صديقتي الأمريكية امرأة رقيقة جدًّا.. لم أكن أعرف أن

بداخلها هذا الكم من الحنان والرقة.. التقطت عشرات الصور للأطفال والمتسولين، ولم تبخل عن الجميع بالمال أبدًا.. أما أنا فكنت أركل أي طفل يقترب مني عقابًا له على تشتيت انتباهي عن أميرتي الساحرة تلك.. فما يكون منها إلا أن تسرق أنفاسي بضحكاتها المستمتعة قبل أن تجذبني من يدي لنرحل إلى مكان آخر نزوره.

صديقتي الأمريكية امرأة متدينة جدًّا.. برغم كونها يهودية متعصبة، إلا أني اكتشفت كم تعشق الإسلام وتعشق الحديث عنه.. توقفنا عند مساجد متعددة مشهورة لتلتقط صورًا للمصلين في كل الأوضاع والزوايا، قبل أن نستأنف سيرنا من جديد.. فنتجه إلى مكان آخر تراه بانبهار وتصفق بكفيها في جزل كالأطفال لتجعلني أشعر بالفخر أكثر فأكثر لأني استطعت إبهارها ولو بأبسط الأشياء.

صديقتي الأمريكية امرأة عاطفية جدًّا.. بكت لحظة فراقنا في نهاية اليوم بالمطار.. وجعلت الدموع تترقرق في عيني قبل أن تسيل حارة على وجنتي، وأنا لا أكاد أتخيل أن حياتي ستعود لما كانت عليه بعد هذه الأيام التي شعرت فيها بسعادة لم ولن أشعر بها في حياتي أبدًا.

صديقتي الأمريكية امرأة عملية جدًّا.. بعد أسبوع واحد من رحيلها أرسلت لي خطابًا تخبرني فيه كم كانت حزينة حقًّا لأنها لم تطلعني على سبب زيارتها الحقيقي.. لم تكن في إجازة كما ادَّعت، بل كانت في زيارة عمل رسمية.. فهي مسئولة عن أكبر تحقيق في جريدتها بعنوان (مصر كما لم ترونها من قبل).. طلبت مني أن أسامحها، وأخبرتني بصراحة شديدة أنها نشرت الصور التي التقطتها بمنتهى البساطة، بينما أنا أسترق النظر - وهي تعلم هذا - إلى مفاتن جسدها كالخنزير غير عابئ بما يحدث من حولي

وما تفعله هي.. ومع الخطاب وجدت نسخة من الجريدة التي أفردت صفحات كاملة لهذا التحقيق، مع عشرات الصور التي التقطتها صديقتي بكاميرتها لتبين فيها صورة مصر.. الحقيقية.

صديقتي الأمريكية امرأة كاذبة ولعينة ومخادعة جدًّا.. لم تنشر صور الآثار والمتاحف والنيل وأجمل مناطق القاهرة التي زرناها معًا.. بل نشرت صور الأطلال والخرائب وأكوام القمامة.. نشرت صور ضرب الضباط للمواطنين في الشارع وإهانتهم.. نشرت صور الأطفال وهم يفتشون في مكب القمامة عن طعام يسد جوعهم أو قطعة من القماش تستر أجسامهم الضئيلة وتقيهم قرصة البرد.. نشرت صور المخدرات والخمور وفتيات الليل اللاتي يلتقطهن الشباب بسياراتهم من الطرقات دون ذرة حياء وعلى مرأى من الجميع.. نشرت صور الصراخ والسباب والشتائم وشجار الشباب والرجال عقب مباراة كرة القدم.. نشرت صور المظاهرات والاعتصامات للعمال والطلبة والموظفين وحصار رجال الأمن لهم وضربهم بالعصي كما لو كانوا خرافًا.

ثرت وصرخت ولعنتها بشدة، ولكني في النهاية هدأت والتقطت أنفاسي وبدأت أدرك الحقيقة التي لم أرد الاعتراف بها لنفسي.

صديقتى الأمريكية امرأة محقة جدًّا.. لم تخطئ في كلمة واحدة.. ولم تتجنَّ على بلدي بشيء.. من أول حرف حتى آخر حرف كانت صادقة تمامًا.. برغم أنها تغاضت عن العديد من الأشياء الجميلة في مصر.. إلا أنها لم تلصق بها شيئًا ليس فيها.. حصلت على الصور وأكثر؛ لأنها وجدت مفتاح إلهائي في لحمها العاري ومفاتن جسدها التي عرفت كيف تكشف عنها جيدًا.. أكثر ما أدماني حقًّا هو خاتمة التحقيق في الصفحة الأخيرة، حيث وضعت صورتين متجاورتين، تمثل الأولى صفوف المصلين في

المسجد وهم يقفون بنتهى الخشوع في صلاتهم، بينما تمثل الأخرى حالة الهرج الشديد لنفس المصلين وهم يتزاحمون على باب الخروج عقب الصلاة، وتناحرهم المستميت وكل منهم يريد أن يسبق الآخر في الخروج.. وبالأسفل وضعت تعليقًا أخيرًا لن أنساه لبقية حياتي..

- قد يمتلئ المصريون بالكثير من الموبقات حقًّا، ولكن الخوف كل الخوف إن طبَّقوا نفس الطاعة والخشوع والنظام الصارم في حياتهم كما في الصلاة، فعندها سيحكم المصريون أمريكا.. ويحكمون العالم...

القاهرة - ١٩٦٤

بهدوء اقتربنا منه محاذرين أن نصدر أدنى صوت، ورغم يقيني أنه لم يكن ليشعر بنا حتى لو فعلنا.. إلا أن شعورًا خفيًّا بداخلي أرغمني أنا ومن معي على احترام الصمت والسكون الذين سادا المكان وجعلاه أشبه بلوحة مصمتة.

همس (وائل) لي:

- دكتور (شريف).. أهذا هو؟

أومأت برأسي مؤمِّنًا دون أن أجيب، بينما تمتمت (جيهان) في خفوت:

- مسكين.

تطلعنا إليه جميعًا وهو يقف أمام النافذة ينظر إلى الحديقة الممتدة على مرمى البصر أمامه، وعلى وجهه أغرب تعبير من الممكن أن تراه في حياتك، بتلك الابتسامة الكسيرة الحزينة والدموع المنهمرة كالمطر من عينيه في صمت.. لم أكن أفهم هذا التناقض أبدًا، فكيف يبكي بحرارة هكذا بينما ابتسامة شفتيه لا تتغير أو تنمحي أبدًا؟.. يا له من شعور غريب!!

عاد (وائل) ليهمس من جديد متسائلًا:

- دكتور.. ألن تخبرنا بقصته؟.

الحق يقال أني كنت أمقت (وائل) هذا وأعتبره أسخف طلابي، ولكني رغم كل شيء قد وعدتهم بالفعل أن أخبرهم قصته كاملة.. لذا تطلعت إليه بنظرة أخيرة حملت الكثير من المشاعر قبل أن ألتفت إليهم قائلًا في هدوء:

- حسنًا.. سأقص عليكم ما حدث له، فأنصتوا جيدًا.

* * *

دوت الصفعة كالقنبلة على وجه الشاب، ليملأ صداها أرجاء الحجرة ومعها يصرخ الصول (عوض):
- تكلم أيها الحقير.. تكلم وإلا سأقتلك.
ركع الشاب على ركبتيه وهو يمسح خيط الدم الذي سال من جانب فمه وهو يقول في ألم:
- أقسم لك.. أنا لا أعرف ما تتحدثون عنه.
صرخ به الصول مجددًا:
- لقد ضبطنا المنشورات في حقيبتك وتقول إنك لا تعرف ما أتحدث عنه؟.. تريدون قلب الحكم أيها الملاعين.. على جثتي.
قالها ثم أعقبها بركلة قاسية بين ضلوع الشاب جعلته يتأوه بقوة وهو يمسك صدره غير قادر على التنفس، قبل أن يتمالك نفسه ويقول في ضعف من بين دموعه:
- لقد أقسمت لك أني لا أعرف شيئًا عن تلك المنشورات، أنا طالب بالفنون الجميلة.. كل ما أعرفه في حياتي هو الرسم والفرشاة والألوان، وليس لي أي علاقة بسياستكم تلك.. صدقني.

أطلق الصول (عوض) ضحكة سخرية عالية وهو ويقول:
- أتظن أنك ستنجح في خداعي بهذه التمثيلية السخيفة يا فتى؟
ثم جذبه من شعره بقسوة لا متناهية حتى جعله يدنو من حذائه وهو يضيف:
- سأجعلك تقبل قدمي باكيًا قبل أن تعترف أيها القذر.. ولكني أعدك حين أنتهي منك ستتمنى لو لم تولد أصلًا.
قالها ثم دفعه بعيدًا ليصطدم بالمقعد الذي كان يجلس عليه منذ قليل ويسقطا معًا على الأرض بشكل جعل الفتى يتأوه في ألم شديد ودموعه تزداد غزارة.. حينها رفع الصول عقيرته بالنداء:
- (جابر).. يا (جابر).
ثم عاد يرمق الفتى في سخرية قائلًا:

- وفر دموعك تلك يا فتى حتى ترى ما أعددته لك، فحينها ستحتاجها حتمًا.

ومع آخر حروف جملته ظهر (جابر) بجسده العملاق على باب الحجرة، فبادره الصول بالسؤال في صرامة:

- ألم آمرك أن تبقى بجوار الباب حتى تسمع ندائي أيها الثور؟.. أين كنت؟

أجابه الرجل في رهبة:

-أنا لم أتزحزح من مكاني فعلًا، ولكن (مراد) بك طلبني فلم أقدر أن أتأخر عليه.. إنه يريدك في مكتبه.

تيار كهربي عنيف غمر الصول (عوض) حين نطق (جابر) باسم (مراد) بك، وزاد من هذا طلبه له في مكتبه بهذا الشكل، حينها لم يقدر أن يمنع جسده من الانتفاض في قوة وهو يسأل (جابر):

- يطلبني أنا؟.. لماذا؟

قلب الرجل كفيه في حيرة دون أن يجيب، فأطلق الصول زفرة حارة حاول أن يفرغ بها توتره، قبل أن يشير إليه قائلًا في لهجة آمرة:

- حسنًا.. ابق هنا ولا تتحرك حتى أعود.. ولا تدع صديقنا الصغير هذا يفقد وعيه مجددًا من كرم ضيافتنا.. أفهمت؟

أومأ الرجل برأسه في طاعة، في حين غادر الصول تلك الحجرة في القبو متجهًا في خطوات سريعة إلى حجرة (مراد) بك رئيسهم، وما إن وصل هناك حتى عدل هندامه قليلًا وهو يدق الباب في رهبة شملت جسده كله، قبل أن يحاول كتمانها وهو يسمع الإذن بالدخول فيدلف وهو يرتجف وجلًا.

وفي الداخل استقبله (مراد) بك بابتسامة واسعة قائلًا:

- أهلًا أهلًا برجلنا الهمام.. كيف حالك أيها العجوز؟

انحنى الصول في احترام وهو يجيب في ارتباك:
- بـ.. بخير طالما سعادتك بخير يا (مراد) بك.
سأله (مراد) بك في اهتمام:
- ما أخبار الوافد الجديد؟.. هل اعترف أم يصر على الإنكار؟
أسرع الصول مجيبًا:
- سيعترف يا باشا.. سيعترف.. فقط أمهلني بعض الوقت معه وسأنتزع منه اعترافًا مكتوبًا بخط يده.
هز (مراد) بك رأسه موافقًا على كلامه دون أن يعلق بحرف واحد، وبعدها ساد الصمت للحظات قبل أن يشقه (عوض) وهو يتنحنح لحظة ثم يقول في حذر:
- لقد أخبرني (جابر) أن سيادتك تريدني حالًا.. خيرًا يا بك؟
عقد (مراد) بك ذراعيه خلف ظهره وهو يسير ببطء في أرجاء الحجرة بلا هدى، وببطء شديد خرجت الكلمات من فمه:
- في الحقيقة الأمر ليس خيرًا يا (عوض).. لقد وصلتني بعض الأخبار بشأن ابنك (علاء).

هربت الدماء من وجه (عوض) تمامًا وهو يسمع تلك الكلمة من (مراد) بك.. ورغم أنه يدرك معناها جيدًا إلا أنه سأله في حذر أكبر وأكبر:
- أي نوع من الأخبار يا بك؟
رمقه (مراد) بك في عينيه بثبات وهو يقول ضاغطًا على حروف كلماته:
- النوع الذي يهمنا يا (عوض).
في تلك اللحظة لم يقدر (عوض) على منع جسده من الانتفاض بقوة وقد تيقن تمامًا من شكوكه.. إنه يعلم في أي مكان يعمل هو، وماذا تعني بالتحديد لفظة (أخبار) التي يتداولونها هنا.. إنها تعني السياسة ولا شيء سواها.. يكفي فحسب أن تحوم الشبهات حول

شخص ما حتى ينطلقوا خلفه كالكلاب المسعورة ليحيلوا حياته جحيمًا ونارًا مستعرة حتى يتأكدوا من صحة شكوكهم تلك أو عدمها و....

- إن تلك الأخبار في مكتبي منذ عدة أيام، ولكني لم أشأ أن أحدثك بشأنها إلا حين أتأكد.. أنت تعلم جيدًا أنك أكفأ رجالي وأكثرهم حماسًا ووطنية، ولكن عملنا ليس فيه ثقة بأحد مهما كان مركزه، وتلك الأخبار كفيلة بأن تطيح بالكل وأولهم أنت.

عاد الصول لينتفض أكثر وأكثر وقد رجته تلك الكلمة من الأعماق...

مستحيل.. ليس بعد المكانة التي صنعها هنا بحماسه ووطنيته وإخلاصه الأعمى لعمله وقسوة قلبه وعدم رحمته التي جعلت الكل يخافه ويرهبه.. لقد جعل أعتى المجرمين يرتجفون أمامه كالفئران.. حتى القادة السياسيين الذين يعملون ضد النظام والمعروف عنهم إخلاصهم لأفكارهم ومبادئهم، لم يتحملوا ساعة واحدة من التعذيب على يديه وانهمرت بعدها الاعترافات من ألسنتهم كالمطر و...

- لقد أثبتت التحريات أن (علاء) ابنك رئيس تنظيم سري كامل في الجامعة هدفه قلب نظام الحكم في البلد والإطاحة بالمسئولين جميعًا، وهذا ما لن نسمح به لأي شخص كان، حتى ولو كان اسمه (علاء جمال عبد الناصر).. هل سمعت؟

يا إلهي.. لقد انتهى وقضى عليه ابنه.. لن يقدر على التهرب من فعلته تلك حتى ولو حاول.. فيكفي أن يشعروا بتورط الشخص في عمل سياسي ما حتى يحكموا قبضتهم عليه وعلى أسرته وأصدقائه وحتى معارفه، ليستخلصوا منهم كل ما يعرفونه عن هذا الموضوع، وبعدها هم من يقرر الصدق من الكذب.. حينها فقط لا يكون لدى هذا الشخص أي أمنية في الحياة سوى أن يروا الصدق في كلامه وإلا ....

جالت بخاطره تلك الأفكار وأكثر، بينما (مراد) بك ما زال يحدثه.. ولكن في النهاية توقفت صورة واحدة في ذهنه، هي كل ما سيطر عليه في تلك اللحظة.. صورته وهو يرقد على أرض القبو مشوهًا من أثر التعذيب والدماء تسيل من كل جسده، بينما عيون رجاله تحدق به من كل صوب وهم يتطلعون إليه في تشف وغل واضحين.. إنه يعرف جيدًا كم يكرهونه ويهابونه، وها قد جاءت فرصة الانتقام إليهم على طبق من ذهب.. حينها يحمل كل منهم أداة تعذيب مختلفة ويتقدموا جميعًا تجاهه ببطء شديد بينما ابتساماتهم تتسع أكثر..

وأكثر...

وأكثر...

و.. لاااااااااااااه.

انطلقت الصرخة من أعماقه دون أن تتجاوز شفتيه، فاعتدل في وقفته بحركة سريعة وقد انتبه للعرق البارد الذي تجمع على جبهته وسال بغزارة على وجهه، حينها قال لـ(مراد) بك في حسم:

- هل لي أن أطلب الإذن بالتصرف يا سيدي؟

عقد (مراد) بك حاجبيه في تساؤل وقد باغته هذا التصرف غير المتوقع، فأضاف (عوض):

- أرجوك يا سيدي.. أعطني الإذن بالتصرف وأعدك أني لن أخذلك أبدًا.

تطلع إليه (مراد) بك في صمت للحظات محاولًا أن يستشف ما يدور بداخله، قبل أن يمط شفتيه ويشير إليه بالموافقة دون تعليق، حينها استدار (عوض) على عقبيه مغادرًا الحجرة ومتجهًا إلى القبو في خطوات سريعة.. وما إن وصل إليه حتى نادى

(جابر) بأعلى صوته.. لحظات وظهر الرجل مقتربًا منه فبادره الصول بالسؤال:
- ما أخبار الفتى؟
أجابه (جابر) بسرعة:
- لقد فقد وعيه، ولكن سنحاول إنعاشه مجددًا حتى ...
قاطعه (عوض) في صرامة:
- لا.. اتركه الآن قليلًا، فأمامنا عمل آخر.
قالها ثم التقط مفاتيحه من جيبه وألقاها إلى (جابر) مكملًا:
- أنت تعرف عنوان منزلي.. أليس كذلك؟
أومأ (جابر) برأسه مؤمِّنًا وهو يلتقط المفاتيح من الهواء، حينها أضاف (عوض) بلهجة جمدت الدماء في عروق (جابر):
- سأكلفك بمأمورية خاصة جدًّا لا تحتمل التأخير.

قالها ثم مال على أذن (جابر) لينطق ببضع كلمات بسيطة جعلت الأخير يتراجع برأسه إلى الوراء ويتطلع إليه في دهشة عارمة غير واثق مما سمعه، ولكن تلك النظرة الصارمة في عيني (عوض) بأنبئته أن ما سمعه صحيح تمامًا، وأن هذا بالضبط ما كلفه به، لذا ترك كل أفكاره جانبًا وانطلق كالملسوع لينفذ الأمر.. أما (عوض) فقد جلس على أقرب المقاعد إليه واستند بذقنه على قبضة يده مفكرًا في عمق ليسود الصمت في تلك اللحظة أرجاء المكان.

كان يعرف أن تلك المأمورية لن تأخذ على الأغلب أكثر من ساعة واحدة فحسب، لذا تعجب كثيرًا حين حضر (جابر) قبل أن تنقضي النصف ساعة الأولى، ولكن تعجبه هذا لم يدم طويلًا وهو يصرف انتباهه إلى الشخص الذي أحضره (جابر) معه وأجلسه مرغمًا على المقعد الذي يتوسط تلك الحجرة في القبو، مقيدًا

ذراعيه خلف ظهره دون أن يخلع القناع الأسود الذي غطى رأسه بالكامل.

غمغم (عوض) في بطء:

- أهذا هو يا (جابر)؟

أومأ الرجل برأسه في إيجاب دون أن ينطق، فأشار إليه (عوض) قائلًا:

- حسنًا إذن.. اخلع عنه القناع وغادر الحجرة ولا تفتحها مهما حدث.. مفهوم؟

ورغم تلك البرودة التي شملت جسد جابر، وهذا الارتجاف الذي لم يقدر على منعه، إلا أنه مال ينزع القناع عن وجه الجالس قبل أن يستدير مغادرًا في صمت ليغلق الباب من خلفه.. حينها فتح (عوض) الصندوق الضخم الذي يحتفظ فيه بأدوات التعذيب قبل أن يختار منه أداة ويتطلع إليها لحظات، ثم يتجه إلى الشاب قائلًا في صرامة قاسية :

- حسنًا يا فتى....أريدك أن تنتبه إليَّ جيدًا فأمامنا الكثير لنتحدث بشأنه.

اتسعت عينا الشاب في ارتياع وهو ينقل بصره بين (عوض) والأداة التي يحملها في يده قبل أن يهتف في رعب:

- أبي.. ماذا يحدث؟ ولماذا أحضرتموني إلى هنا؟.. أنا (علاء) ابنك.. ماذا تفعل؟.. لا.. لاااااااااااااااااااااااااه.

دوَّى الصراخ ليرج الحجرة رجًّا، ولكنه لم يقدر على اختراق الجدران المصمتة في القبو ليصل إلى الخارج.. لم يقدر على الوصول إلى حجرة (مراد) بك الذي كان في تلك اللحظة يرقد على الأريكة الوثيرة في حجرته في تراخٍ مستمتعًا باللحظات التي يعيشها.. كانت أحلام اليقظة في تلك اللحظة تعبث بعقله وتخلق له عالمًا تمنى لو يعيش فيه تاركًا حياته البائسة تلك من خلفه.. كان

يمقت عمله هذا كالطاعون.. ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه أنه السبيل الوحيد والمتاح للنفوذ والسلطة وصنع العلاقات مع كبار رجال الدولة.. فكلما ازدادت قبضته على النشاط السياسي بين الناس وتحكم فيه جيدًا، كلما ازدادت ثقة الكبار فيه ورضوا عنه.. وبالتالي مزيدًا من المراكز التي سيعتليها والتي ستصل به إلى هدفه الذي طالما تمناه و...

- (مراد بك.. مراد بك).

هتف بها أحد رجاله وهو يقتحم حجرته في عنف دون استئذان، فانتفض في مجلسه وهو يصرخ في ثورة:

- هل جننت أيها اللعين؟.. كيف تجرؤ على اقتحام حجرتي بهذا الشكل؟.. سترى ماذا سأفعل بك أيها الـ...

قاطعه الرجل وهو يهتف في جزع:

- مصيبة يا (مراد) بك.. مصيبة.. أسرع أرجوك.

قضت تلك الكلمات على ثورته تمامًا وحولتها إلى النقيض وهو يهب واقفًا ويلتقط سترته، ثم يهرع بعدها وراء الرجل ناحية القبو ليرى ما الأمر.

كان القبو في تلك اللحظة قد تحول إلى ساحة حرب بكل هذا العدد من الضباط والعساكر الذين وقفوا جميعًا مشكلين دائرة اختفى مركزها تمامًا.. وبصعوبة بالغة شق (مراد) بك طريقه وسطهم ليصل إلى المركز، حينها اتسعت عيناه في ارتياع وهو يرى الصول (عوض) جالسًا على الأرض وهو يحتضن ابنه ويبكي في حرقة شديدة.. كان جانبًا من وجه الفتى يختفي في حضن أبيه، بينما يظهر الجانب الآخر للجميع ليرسم صورة واضحة عما دار في الساعة الماضية.. فبينما سال الدم من كل مكان في جسد الفتى، كان وجهه قد تشوَّه تمامًا، وورمت عيناه، وتحطم فكه وأسنانه كما لو كان ثورًا قد دهسه.. وكان الشيء

الوحيد المؤكد والظاهر للجميع هو أن الفتى بالفعل قد فارق الحياة.

صرخ (مراد) بك في الواقفين بثورة عارمة:

- إلام تنظرون؟.. هيا.. ليذهب الجميع إلى عمله.. لا أريد أحدًا هنا.

ارتبك الواقفون جميعًا وتضاربوا وهم يتزاحمون في خوف محاولين الهروب من المكان ومن ثورة (مراد) بك العاتية.. ومع آخر قدم ترحل من الحجرة استدار (مراد) بك إلى (عوض) هاتفًا به:

- ماذا فعلت يا عوض؟.. أقتلته؟.. أهذا ما كنت تنوي أن تفعله أيها المأفون؟

أجابه عوض في تهدج وهو يبكى بحرارة:

- لم أكن أقصد هذا أبدًا أقسم بالله.. كنت ثائرًا وأريد أن أعرف منه ما كان يخطط له هو وأصدقاؤه.. ولكني لم أقصد أن أؤذيه أبدًا.. إنه ابني الوحيد.. حبيبي.. فكيف أؤذيه؟

تطلع مراد بك إلى وجه الفتى المشوه مستغربًا من هذا التناقض، ولكن رؤيته بهذا الشكل الرهيب جعلت بدنه يقشعر ويقف شعر ساعديه، فيشيح بوجهه بعيدًا دون أن يجد ما يقوله بالضبط.. فكيف لا يمكنه أن يؤذيه كما يقول وهو من فعل به هذا؟.. كيف؟.. أي جنون هذا؟

ثم حاول السيطرة على أعصابه ومشاعره وهو يلتقط نفسًا عميقًا من الهواء ليكتم به توتره وهو يعود ليسأل (عوض):

- ما الذي حدث بالضبط؟

جفف (عوض) دموعه في طرف قميصه وهو يجيب في ألم:

- لقد أمرت (جابر) أن يحضره حتى أعرف منه ماذا يفعل بالضبط في الجامعة، وما حقيقة هذا الانقلاب الذي يخططون له..

ولكنه كان ينكر كل شيء ويدَّعى أنه لا يعرف أصلًا ما أتحدث عنه.. وفي كل مرة لا يجيب فيها أو حتى ينكر كنت أزداد قسوة وأنهال عليه ضربًا بكل ما تصل إليه يدي حتى يعترف.. أقسم بالله أني لم أكن أنا من يضربه.. خوفي ورعبي من المصير الذي يمكن أن يطولني هما من جعلاني لا أشعر بنفسي وأنا أعذبه حتى سقط بين ذراعي في النهاية هكذا.. لم أكن أشعر بما أفعله.. لم أكن أشعر أنه يموت بين يدي دون أن أنتبه.. أنا أستحق القتل.. أستحق القتل.

قالها وهو يحتضن ابنه بقوة ويبكي في حرقة لا مثيل لها.. فجلس (مراد) بك بجواره قبل أن يمسكه من كتفه بقوة قائلًا في عصبية:

- دعك من هذا النواح الآن فلن يجدي معه أو معنا.. ينبغي أن نتصرف وإلا عرف المسئولون بالأمر.. وحينها أنا وأنت سنضيع حتمًا.. أفهمت؟

شرد (عوض) تمامًا بعينيه وهو على نفس جلسته تلك بينما يردد بلا وعي:

- لا يهم.. أنا أستحق القتل.. أستحق القتل.

جذبه (مراد) بك بقسوة من ذراعه وهو يهتف به:

- بل تستحق أن تحرق حيًّا وأكثر.. ولكني لست مستعدًّا لمشاركتك العقاب لمجرد أني وثقت فيك وأعطيتك حرية التصرف.. اسمعني جيدًا.. نحن شريكين في هذا شئت أم أبيت، لذا ستتصرف كما آمرك وبلا نقاش وإلا سيكون عقابي عسيرًا للغاية.. مفهوم؟

رفع (عوض) عينيه إليه دون أن يجيب، ولكن نظراته كانت كافية جدًّا ليعرف (مراد) بك أنه سيطيع أوامره بلا تفكير كما تعود دومًا حتى ينقذ نفسه من العقاب المنتظر.. لذا عاد ليلتقط

نفسًا عميقًا من الهواء قبل أن يبدأ ليشرح له ما سيفعله بالتفصيل.. ومع كل حرف يقوله كانت عينا (عوض) تتسع في ارتياع وهو لا يصدق ما يسمعه.. على الإطلاق.

* * *

أخذ (شريف) يراجع أوراق الملف في يده، تاركًا (وائل) يفغر فاه وهو يحدق في الصول (عوض) الواقف على مقربة منهم أمام النافذة، بينما أشاحت (جيهان) ببصرها بعيدًا وهى تغمغم:

- بعد ما سمعته أعتقد أني سأسحب كلمة مسكين التي قلتها عنه منذ قليل.

أغلق (شريف) الملف ونظر إليها دون أن يجيب في حين قال (وائل) في ذهول:

- مستحيل.. هذا الرجل مجنون فعلًا.

هز (شريف) كتفيه قائلًا:

- بالعكس إنه عاقل جدًّا.. كل ما في الأمر أنه عبد ينفذ أوامر أسياده.. فقط في المرة التي نفَّذ فيها أمرًا لم يعطوه له وتصرف من عقله وحده ارتكب جريمة بشعة ليس لها مثيل.. مجرد مثال لآلة صماء لا تفهم ولم يكن ينبغي لها أصلًا أن تتحرك دون تحكم فيها.. وها هي النتيجة أمامكم.

هزت (جيهان) رأسها مؤمِّنة على كلامه قائلة:

- هذا هو رأيي أيضًا.

قالتها وهي ترمق (عوض) بنظرة جانبية قبل أن تعود لتسأل من جديد:

- ولكن ما الذي حدث بعدها؟.. ما الذي اتفق عليه (مراد) معه؟

أجابها (شريف):
- كل ما حكيته هذا كان يتم بعد منتصف الليل.. واعتمد (مراد) في فكرته على هذا، فأرسل سيارة خاصة تابعة لهم، تحمل الفتى ورجلين اختارهما بنفسه.. وفي شارع مظلم ألقوا الفتى المسكين على جانب الطريق وعادوا أدراجهم.
سأله (وائل) مستغربًا :
- هذا فقط؟.. لماذا؟
مط (شريف) شفتيه مجيبًا:
- ليزيحوا التهمة عنهم بأي طريقة، وساعد في هذا براعتهم في سحب ضحاياهم من بيوتهم في ظلمة الليل ودون أن يشعر بهم أحد، لذا كانوا واثقين تمامًا أن أحدًا لم يرهم مع الفتى لا قبل أن يموت ولا حتى بعد مماته.. وحين انتهوا وألقوا الفتى في الشارع المنعزل توقفوا بجانب الطريق وطلبوا الشرطة و...
أكملت (جيهان) مكانه:
- وأبلغوا عن فتى وجدوه ملقى مشوهًا في أحد الشوارع المظلمة.. وربما سرقوا منه نقوده ومحفظته وكل ما يملك لتبدو الجريمة كأنها عملية سرقة عادية انتهت بقتل المجني عليه.. أليس كذلك؟
أشار إليها (شريف) مجيبًا:
- بالضبط هذا ما حدث.. بالفعل وصلت إليه الشرطة ووجدته.. ثم استدعت أباه لتبلغه الخبر.. والحق أن الضغط النفسي الرهيب الذي كان يعانيه كان يكفي لتصدق الشرطة دموعه وصراخه على ابنه، وخاصة وهي تعلم في أي مكان يعمل هو في البلد.. لذا كانت معاملته تختلف عن أي أحد آخر وتزيل من نفوسهم أي شك تجاهه.. وتم دفن الفتى وعمل جنازة مهيبة له حضرها رجال لهم مراكزهم في البلد.. ليس طبعًا من أجل الفتى ولا حتى أبيه، ولكن من أجل (مراد) بك الذي عرفوا

أنه سيحضر الجنازة بنفسه على غير عادته مع أي رجل آخر من رجاله.. أما الرجال العاملين تحت إمرته، فهم فقط من كانوا يعرفون الحقيقة، ولكن تكفل خوفهم من العقاب بأن يبقيهم خُرسًا تمامًا ولا يبوحوا بما حدث في تلك الليلة لأي شخص مهما كان، حتى لا يبيدهم (مراد) الذي يخافونه أكثر من الموت نفسه.

سأله (وائل) في اهتمام:

- ولكن لحظة.. إذا كان الأمر قد مر بسلام ولم يعرف أحد به كما تقول، فلماذا هو هنا إذن؟

خلع (شريف) نظارته وهو يجيبه:

- برغم أن أحدًا لم ينطق بحرف حتى كادت تلك الجريمة تموت وتتحول إلى جريمة كاملة، إلا أن شيئًا واحدًا ظهر بعد أسبوعين من تلك الأحداث ليغير كل شيء.. ويقلب الأمور رأسًا على عقب.

* * *

دق جرس الباب في منزل الصول (عوض) فنهض الرجل متثاقلًا ليفتح الباب، فوجده صديق ابنه (علاء) المقرب (أحمد) واقفًا على عتبة الباب.. وما أن رآه حتى أشرق وجهه قليلًا وهو يقول:

- (أحمد).. كيف حالك يا صغيري؟

تنحنح الفتى مجيبًا:

- بخير الحمد لله يا عمي (عوض).. كيف حالك أنت؟

ابتسم (عوض) ابتسامة كسيرة وهو يجيب:

- نحمد الله يا ولد.. أنا بخير طالما رأيتك.. تفضل بالدخول.

قالها وهو يتراجع قليلًا سامحًا للفتى بدخول البيت، وما أن استقر على مقعده في الصالة وجلس الصول (عوض) في مقابله حتى بادره الأخير قائلًا:

- لم تسأل عن عمك العجوز طوال تلك المدة يا (أحمد).. أنت تعلم أني لم يعد لدى بعد الله تعالى غيرك أنت.

قال الفتى في حرج:

- لقد كنت أنوي أن آتي إليك قبل هذا يا عمي ولكن لم أشأ أن أتطفل عليك.. ولولا الموضوع الذي أتيتك بشأنه اليوم لما كنت أزعجتك بهذا الشكل.

قال (عوض) في هدوء:

- لا تقل هذا يا (أحمد)، فأنت تعلم أني أعتبرك في مكانة (علاء) رحمه الله.. المهم.. خيرًا يا ولدي؟

أجابه الفتى:

- الحقيقة يا عمي أنه منذ أن توفي (علاء) ونحن لا نفكر إلا في هذا الموضوع حتى توصلنا في النهاية إلى قرار.. إننا نستأذنك أن نستخدم النص الذي كتبه (علاء) لنقدم نحن العمل، ولكن في النهاية سنهديه لروحه بالتأكيد.

عقد الرجل حاجبيه مستغربًا وهو يسأله:

- نص؟.. أي نص هذا يا ولدي؟.. أنا لا أفهم ما تقصده.

أجابه الفتى بسرعة:

- نص المسرحية التي كان يعمل فيها (علاء) معنا قبل أن يتوفى.. لقد كتبها بنفسه وكان المقرر أن يخرجها ويقدمها على مسرح الجامعة لولا ما حصل.. فقررنا أن نقدمها نحن بدلًا منه ونعرف الجميع أنه هو صاحب هذا العمل.

صمت (عوض) قليلًا وهو يدير الأمر في رأسه قبل أن يقول وهو يشعر بشيء غير مريح في الأمر:

- لم يخبرني (علاء) بهذا الأمر أبدًا.. لماذا؟
أجابه الفتى في ضيق:
- لأنه كان يعرف أن حكومتنا للأسف تفكر بطريقة بوليسية متشككة للغاية، وحتمًا كان المسئولون سيفهمون الأمر بشكل خطأ، وحينها سيجلب المشاكل لنفسه ولكل من معه فيها وكذلك أنت يا عمي، فهو يعلم مثلنا في أي مكان تعمل.. وكل هذا لأن تلك المسرحية سياسية بحتة وموضوعها شائك للغاية و...
قاطعه عوض قائلًا وقد بدأ يفهم:
- انقلاب؟
أطل التساؤل من عيني الفتى فأكمل (عوض) وقد بدأ قلبه يخفق بعنف:
- المسرحية كانت تدور حول انقلاب ما أليس كذلك؟
أومأ (أحمد) برأسه مجيبًا:
- بلى.. ولكن كيف عرفت يا عمي؟.. لقد كان يتكتم الأمر تمامًا، ولم يكن ينوي أن يخبر أحدًا غير العاملين معه إلا بعد أن يقدمها على مسرح الجامعة.. هو أخبرني بهذا، فكيف عرفت أنت؟
أطرق (عوض) بوجهه أرضًا وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة متمتمًا:
- لم أكن أعرف بها.. ولكن هم من عرفوا.. عرفوا ولم يفهموا الحقيقة، لهذا ظنوه انقلابًا حقيقيًّا.
سأله أحمد في حذر:
- ماذا تقصد يا عمي؟.. من هم هؤلاء؟.. أنا لا أفهم.
لم يجبه (عوض) بحرف، بل شردت عيناه تمامًا وهو يضيف في صوت لم يسمعه سواه:
- وأنا صدقتهم.. افهموني أنه رئيس تنظيم وخطر على أمن الدولة وأنا صدقتهم.. أنا قتلته بيدي.. قتلته بيدي.

قالها وشبح ابتسامة خافتة ترتسم على شفتيه لم تلبث أن اتسعت في بطء..واتسعت..واتسعت..

حتى تحولت إلى ضحكة عالية رجت المكان رجًّا وهو ينهض من مقعده ويقذفه بعيدًا وهو يصرخ:

- أنا قتلته.. لا.. لا.

وبمنتهى القوة ركل مقعد آخر..

وآخر..

وضحكاته تتحول إلى بكاء حارق وصرخات تصم الآذان دفعت (أحمد) أن ينظر إليه في رعب وهو يتراجع إلى الخلف، ثم يفتح الباب ويرحل من المكان كالملسوع تاركًا (عوض) من خلفه يواصل تحطيم المكان وهو يصرخ بأعلى صوته:

- لقد قتلته.. قتلته.. لا يا (علاء).. لا يا ولدي.. لا.

* * *

أغلق (شريف) ملف (عوض) تمامًا وخلع نظارته الطبية وهو يتنهد قائلًا:

- وهكذا انتهت قصة (عوض) للأبد.

غمغمت (جيهان) في أسف:

- يا له من موقف.. لو كان فقط أحكم عقله لما حدث كل هذا.. إنه أدرى الناس بابنه، فكيف لم يعرف ما يمكن أن يفعله ابنه وما لا يمكن أن يفعله مهما حدث؟

هز (شريف) رأسه نافيًا وهو يقول:

- بالعكس يا (جيهان).. مثل (عوض) لا يمكن أن يفكر أبدًا بشكل صحيح.. إنه آلة تعودت على التنفيذ فإذا أعطيتيها فرصة لتتصرف وحدها ستبيد الجميع دون أن تدرك ما تفعله.. ولعل هذا هو ماجعل تصرفه التالي منطقيًّا نوعًا ما.

سأله (وائل) في لهفة:
- وما الذي فعله بعد هذا؟
رمق (شريف)، (عوض) بنظرة طويلة قبل أن يقول في هدوء:
- كانت ثورته عاتية.. ولم يقدر أحد من الجيران على منعه أو حتى تهدئته.. وفي غمضة عين استطاع أن يفر من الجميع متجهًا إلى مكان واحد.. أو بالأحرى شخص واحد.
سألته (جيهان) في حذر:
- (مراد)؟
أومأ برأسه مؤمِّنًا على كلامها قبل أن يكمل:
- كان غضبه يعميه تمامًا فلم يقدر أي إنسان في تلك اللحظة أن يقف حائلًا بينه وبين (مراد).. وحين تكالبوا عليه في اللحظة الأخيرة ليحموا (مراد) منه.. استطاع بقدرة غير عادية أن يدفعهم جميعًا ويهرع إليه و.. ويقتله.
شهقت (جيهان) من المفاجأة بينما هتف (وائل):
- قتله؟.. كيف؟

أجابه (شريف):
- بسكين الخطابات الصغير الذي كان على مكتب (مراد) طوال الوقت.. قفز (عوض) ليلتقطها ثم غرسها حتى المقبض في عنقه.. وحين رأى الدم يتفجر من عنق الرجل، ترك السكين يسقط من يده في ذهول تام.. وتهاوى على الأرض ودموعه تنهمر تاركًا لهم الفرصة لتقييده وسحبه من المكان.. وجرت محاكمته بالفعل، ولكن تم التشكيك في صحة قواه العقلية فحكم عليه بالبقاء هنا إلى أجل غير مسمى.. هذه هي قصته بالكامل.. عجيبة أليس كذلك؟

هـزت (جيهـان) رأسـها موافقـة دون أن تنطـق بينمـا غمغـم (وائل) مبهوتًا:

- أنا لم أسمع مثلها أبدًا.

ربت (شريف) على كتفه قائلًا:

- بالعكس.. أمامك الكثير لتراه هنا وتتعلمه.. والآن هيا، لقد استغرقنا وقتًا طويلًا هنا وأمامنا الكثير من الحالات لأطلعكم عليها.

قالها ثم غادر الحجرة ومن ورائه (جيهان) في صمت، في حين رمق (وائل)، (عوض) بنظرة طويلة صامتة حملت الكثير من المشاعر والأفكار قبل أن يتنهد في عمق ويرحل هو الآخر مغلقًا الباب من ورائه.

حينها.. استدار(عوض) خلفه ليتطلع إلى الباب الذي كانوا يقفون عنده منذ لحظات، وكأنه انتبه إليهم في تلك اللحظة فقط، قبل أن يعود لينظر من النافذة إلى الحديقة الممتدة أمامه لتتوقف عينيه على نقطة محددة.. على تلك الشجرة المثمرة الكبيرة في وسط الحديقة، والتي وقف أمامها (علاء) ابنه ينظر إليه من بعيد وهو يبتسم في حنان وملائكية أضفتها عليه أكثر ملابسه البيضاء الرقيقة التي كانت تغطي جسده بأكمله وتعطيه بهاء ليس له مثيل...

ومع ابتسامة (علاء) الحزينة، كانت ابتسامة (عوض) هي الأخرى تتسع أكثر فأكثر بينما دموعه لاتكف عن الانهمار...

دموع حزن على ابنه...

أو حتى ندم لما ارتكبه...

لا فارق لديه.. فالوقت قد فات بالفعل ولم يعد هناك سبيل للعودة.

في بلــد اللِّحــى

- ملحوظـة: أحـداث تلـك القصـة وشخصـياتها وحتـى فكرتهـا محض خيـال لـيس أكثـر.. مجـرد فانتازيـا تعبـر عن الواقـع الـذي نعيشــه الآن، ولكنــه فــي نفـس الوقـت تخيـل لصــورة لا أسـتبعد حدوثها يومًا.

المكان : مصر.. الزمن: المستقبل القريب.

في حارتنـا الصغيرة يسكن العشرات من الناس بمختلف ألوانهم وطبـاعهم.. لا يشـبه أحـد مـنهم الآخـر، فكـل مـنهم لـه شخصـيته وصفاته التي أعرفها جيدًا بحكم عملي.. ورغم هذا الاختلاف إلا أنهـم يشـتركون فـي صـفة واحـدة.. جمـيعهم بـلا اسـتثناء زبـائن لمتجري الصـغير.. وهـذا المتجـر إن لـم تكـن تعرفـه، هـو متجـر صغير أبيع فيه المسابح وسجاجيد الصلاة والمصاحف والجلابيب و... واللِّحى.

نعم.. ففي نهاية المتجر أحتفظ بهذا الدولاب الكبير الذي يحوي مئات اللحى بمختلف ألوانهـا وأشـكالها وحتـى أطوالهـا.. يكفـي أن يختـار الزبـون اللحيـة التـي تتلاءم مـع وجهـه ولـون بشـرته حتـى يؤجرهــا منــي لمــدة معينــة وبســعر محــدد يناســب اللحيــة التــي اختارها، أو قد يشتريها لتكون ملكه دائمًا، فيرتديها ويخلعهـا متـى يحب.. وسواء هذا أو ذاك يكون السعر بسيط للغاية، لا يقارن مع الفائـدة التـي تعـود عليـه مـن اللحيـة التـي سـيرتديها.. وتلـك الفائـدة تختلف دومًا من شـخص لآخـر وأيضًـا مـن غـرض لآخـر.. فمـن النـاس مـن يريـد اللحيـة لأنـه سـيتقدم لوظيفـة فـي شـركة إسـلامية جديـدة مـن التـي بـدأت تنتشـر بقـوة فـي بلـدنا، أو مثلًا لأن عريسًـا سيتقدم لابنته ويريد اقناعـه بالعائلـة المسـلمة التقيـة التـي سـيخطب

منهـا، أو ربمـا يريـد أن يلتحـق بإحـدى المناصـب المهمـة فـي حكومتنا الإسلامية الجديدة والتي تشترط شكلًا لموظفيها لا يجب تغييره مهما حدث.. وغير ذلك الكثير والكثير من الفوائد التي يكون مفتاحها دومًا اللحية.

بالطبع لا يتعامل الجميع معي في هذه التجارة.. فما زال هناك الكثير من المسلمين الحقيقيين في كل أنحاء البلد والذين أطلقوا لحاههم سنة عن النبى الكريم (صلى الله عليه وسلم) وليس رياء وخداعًا كما يقولون عن زبائني.. وهؤلاء يمقتونني بشكل لا يوصف ويدعون أني شيطانًا أعلم الناس النفاق والخداع.. وأنا حقيقة لا أعلم سر غضبتهم تلك، فليس معنى أني أبيع الناس شيئًا أني بهذا مقتنعًا ببضاعتي التي أتاجر بها.. مثلي مثل مندوب المبيعات الذي يروج لمنتجاته وهو أصلًا غير راضٍ عنها.. هذا هو عملنا الذي لم نختره فلا تحاسبونا من فضلكم.. ألا يكفي أننا اضطررنا لهذا العمل أصلًا بعد أن وصلت الجماعات الإسلامية إلى حكم البلد، وفرضت على المواطنين النقاب والجلابيب البيضاء القصيرة وإطالة اللِّحى بالأمر؟.. أم كنتم تريدون أن نكون مثل جماعة (الفاسقون)؟.. تلك الجماعة التي ضربت بأوامر الحكومة الجديدة عرض الحائط وظلوا كما كانوا دومًا في السابق أشخاصًا طبيعيين يلبسون ملابسهم القديمة، ويمارسون حياتهم العادية التي اعتبرتها الحكومة فسقًا ومجونًا لا ترض به أبدًا.. فقط حين فعلوا هذا أسقطتهم الحكومة تمامًا من حساباتها، ولم تعد تعتمد لهم معاشًا ولا تأمينًا صحيًّا ولا أي خدمة أخرى من التي توفرها لمواطنيها الباقين، عقابًا لهم على تمردهم هذا.. ولم يتوقف الأمر عند ذلك فحسب، بل أغلقت كل المصالح في وجوههم وطردت معظمهم من أعمالهم ليتولاها غيرهم ممن ترضى عنهم الحكومة.. بل ووصل الأمر إلى أنه لم يعد أحد

يتزوج بناتهم ولا يرضى بأبنائهم زوجًا أبدًا خشية ما يمكن أن تفعله بهم الحكومة إن ارتبط مصيرهم بمصير أحد منهم.. باختصار أصبح (الفاسقون) - كما تسميهم الحكومة - منبوذين تمامًا في بلدهم دون ذنب جنوه.

أما من تبقَّى منهم، والذين استمروا في أعمالهم بمعجزة ما، فتكفل الناس بنبذهم أكثر بتجاهلهم التام وكأن لا وجود لهم من الأساس، بعد أن أصبح كل مواطن يخشى التعامل أو مجرد الحديث معهم؛ حتى لا تعتبره الحكومة ضمنهم فيناله ما نالهم.

وكان من تلك الفئة الأخيرة أخي (سعيد) الذي يسكن بجواري في نفس الحارة، ولكن شتان بين تعامل الناس معي وتعاملهم معه.. فالمسكين قد أصبح منبوذًا ومكروهًا تمامًا من كل أهل الحارة ومجبرًا على التعامل هو وطفلته الوحيدة مع أشخاص يراهم يخشون منه ويخافونه وكأنه الطاعون.. حتى الطعام والشراب أحضرهم إليه سرًّا في ظلمة الليل حتى لا يراه أحد، أو بالأحرى يراني أنا فينشرون الخبر بينهم، وعندها تكسد بضاعتي ويقاطعني الناس مثله.

إن (سعيد) يحبني لأني أخاه الوحيد، ولكن صورتي أمامه لا تتغير.. مجرد شيطان يمشي على قدمين يبث في الناس السموم والنفاق والخداع.. لا أتذكر مرة أنه ألقى التحية عليَّ.. دائمًا ما يبدأ يومه بأن يغادر المنزل متجهًا إلى أول الشارع ليوصل ابنته إلى مدرستها قبل الذهاب إلى عمله.. يكفيه فحسب تلك النظرة الصامتة السريعة المعتادة التي يلقيها على كل يوم وهو يعبر أمامي قبل أن يدير وجهه ويسير هو وطفلته في صمت.. نظرته تلك تحمل مئات الكلمات والمشاعر، ولكنه أبدًا لا يجرؤ على البوح بها حفاظًا على نفسي قبل كل شيء.. ولكني أمامها لا أملك سوى أن أطرق بوجهي أرضًا في خجل من تلك الجريمة التي

أرتكبها في إصرار شديد يومًا بعد يوم، قبل أن أتناسى الأمر مؤقتًا لأعود إلى عملي وزبائني.. أنا أعرف مصيره جيدًا وأعرف أن الأسوأ بينه وبين الحكومة قادم لا محالة، ولكن ماذا بيدي لأفعله؟.. هو في نظرهم عم (سعيد) الموظف الكهل والفاسق عدو الدين وعدو أولى الأمر من الحكومة.. أما أنا فالمسلم التقي وبركة الحارة عم (إسماعيل).. بائع اللحى.

* * *

لم أقدر أبدًا أن أكره أخي (إسماعيل).. رغم ريائه ونفاقه وادعائه التقوى والورع، لكني لم أقدر لحظة على كراهيته.. لقد تغير جلده بالكامل مع الظروف التي مرت بها البلد، ونجح أن يركب الموجة كما يقولون ليزيد ربحه من هوجة التدين المزيف التي انتابت الناس، ولكن رغم كل هذا لم تزل هناك في نفسه بقايا من عناد قديم وحرية لم تضيعها الحكومة بأوامرها وتعنتها.. أرى هذا من شرفة داري كل يوم حين نسمع أذان الصلاة فينتشر رجال الحكومة لإغلاق المتاجر حتى يصلي أصحابها.. حينها أراه يطفئ أضواء متجره ويدخل إليه ليقبع منتظرًا انتهاء الصلاة.. إنه لا يصلي فقط لأنه لا يريد تنفيذ أوامر الحكومة حتى وهو بهذا يعاند نفسه ويعصى الله سبحانه وتعالى.. وبعد كل هذا يستغرب إصراري على موقفي واعتراضي مثل غيري على أوامر الحكومة العجيبة وتعنتها مع المواطنين بشكل لا يرضي الله أبدًا.. إننا لا نقبل أن يفرض علينا شيئًا بالقوة، فما بالك بشيء شديد الحساسية كهذا؟.. ألا يعلمون أن هذه علاقة بين الله وعباده لا يحق لأحد أبدًا أن يتدخل فيها؟.. من نصبهم وسطاء أو باباوات بيننا وبين إلهنا العليم بنا وبقلوبنا؟.. ثم ماذا يعني أن تكون بزي معين أو أن تكون لحيتك طويلة بعض الشيء؟.. أهكذا فقط تكون

مسلمًا وتستحق أن تحمل تلك الصفة؟.. هكذا فقط يقبلك الناس بينهم وإلا فلا؟.. أي سخف هذا.

ولكن دون أن أدري تغير كل شيء من حولي تمامًا، وانقلبت حياتي رأسًا على عقب في ذلك اليوم الذي لن أنساه أبدًا ما حييت.

بدأ الأمر بعد وصولي بدقائق إلى المكان الذي أعمل فيه، وبعد أن انتهت الإجراءات المعتادة في معاملتي باحتقار، والتي أصبحت شبه رسمية في هذا المكان.. فمن نظرات البواب المقيتة حين مررت به إلى زملائي أنفسهم الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء رد تحيتي عليهم وكأن ليس لي وجود من الأصل.. وحتى مديري في النهاية الذي واصل إهانتي وتقريعي مجددًا لتأخري عن العمل رغم وصولي في ميعادي بالضبط، قبل أن يختم كلامه بخصم يومين من مرتب لأتذكر أن أستيقظ مبكرًا في الغد.. وأخيرًا ما أن كدت أستقر في مقعدي وأبدأ في العمل حتى دق جرس الهاتف بجواري ليأتيني صوت مدير المدرسة يخبرني أن ابنتي تم نقلها للمستشفى العام بعد أن فاجأها ألم شديد لم تتحمله ولم يعرفوا له سببًا.

نهضت كالملسوع من مكاني لأغادر المكان بسرعة غير عابئ بشيء من حولي.. وحين وصلت للمستشفى طالعني الطبيب المعالج بنظرة قرف بالغة - بعد أن رأى ملابسي المغايرة وعرف لأي جماعة أنتمي - وهو يخبرني بمنتهى البرود أن ابنتي تحتاج إلى عملية لاستئصال الزائدة منها، وهي عملية لا تحتمل التأخير وينبغي أن أجريها لها فورًا.

حاولت أن أفهمه أن حالتي المادية لا تسمح بأن أجريها في مستشفى خاص، وأنه لا مفر من إجرائها هنا في المستشفى الحكومي..حينها زاد الضيق على وجهه وهو يخبرني بنفس اللهجة الباردة أن الطابور أمامي طويل حتى يأتي الدور على

ابنتي.. أتريد الانتظار؟.. انتظر كما تحب، ولكن بعد إذنك قليلًا.. التالي.

وفي لمح البصر تهللت أساريره وهو يطالع هذا التالي، والذي كان رجلًا وقورًا قوي الجسم، وله هيبة مميزة رغم ملابسه المعتادة التي أصبحت سمة مميزة في أغلب المواطنين، ولكن زاد عليها هذا الشماغ الفاخر الذي انسدل على رأسه والذي دل على أنه أحد أعضاء الحكومة ذوي المناصب المهمة.. انشرح الطبيب للغاية وهو يحدث هذا الرجل بمنتهى التواضع، وكأن أحدًا غيره كان يحدثني منذ قليل وليس هو أبدًا، بعد أن اختفت نظرة التقزز من عينيه وتلاشت ابتسامة التعالي والبرود من شفتيه لتحل ابتسامة التزلف والتذلل مكانها.

ولعشر دقائق ظل الطبيب يشرح لهذا الرجل حالة ابنة شقيقته التي كانت تجري عملية على نفقة الدولة لتجميل أنفها وأنه بنفسه يتابع حالتها يومًا بعد يوم إكرامًا لخاطره و...

وعندها كان الوضع قد أصبح لا يمكن السكوت عنه أكثر من هذا.. وجدت نفسي أنفجر فيه وأثور وأرغى وأزبد، مهددًا باللجوء لأعلى السلطات.. ولكن يبدو أني نفسي لم أقتنع بما أقول، فانعكس هذا على صوتي المرتجف الذي حاول التماسك أمامه، وعليه بالتالي وهو ينظر إليَّ في استخفاف شديد مطالبًا إياي أن أخفض صوتي لأن هذه مستشفى وليس حظيرة.

بصعوبة شديدة سحبني الممرضون من أمامه قبل أن أفتك به حتمًا.. وأقنعوني أنه ليس أمامي فرصة معه خاصة، وأنا من تلك الجماعة المحظورة التي يعرف الجميع أنه لا صوت لها في بلدنا وليس لها تأمين صحي أصلًا.. إذن أنا أطالب بخدمة لا يحق لمن مثلي أن يطلبها.. كل ما يمكنهم تقديمه لي، ولخاطر تلك الطفلة المسكينة هو أن يبقوها في المستشفى لرعايتها لليلة واحدة فحسب

حتى أقرر ما سأفعله بالضبط، وهذا أقصى ما يمكن أن أناله هنا.. فلا ينبغي أن أطمع في المزيد.

إذن لا يوجد حل سوى إما أن أوفر المال لأجري العملية في مستشفى خاص حتى أرحم طفلتي من هذا الألم الذي لا يُحتمل، أو أن أجد شخصًا له علاقات قوية ونفوذ يكفي لتقديم دور ابنتي للأمام، وجعل الطبيب يجري لها العملية بأسرع وقت ممكن.

لم أجد أمامي إلا هذا الحل الأخير.. فبالطبع لم تكن نية السرقة متوفرة لديَّ، ولن يكفي بيتي بكل ما يحويه لسداد ربع المبلغ الذي سيطلبه المستشفى الخاص.. لذا ليس أمامي سوى أن أجد هذا الشخص الذي تتوافر فيه تلك الثفات.. شخص مثل الطبيب ومثل باقي الناس في البلد، يقول جزاك الله خيرًا، وبارك الله فيك، ويكفي زيه وهيئته والأثر الضخم الذي يزين جبهته من كثرة السجود لتنفتح أمامه الأبواب المغلقة.. يا إلهي.. أين سأجد هذا الشخص والكل يكرهني هكذا؟

سرت في الطرقات مكتئبًا وشاردا أبحث في وجوه البشر عن هذا الشخص المجهول حتى قادتني قدماي لبيتي، حينها رأيته ساهرًا في متجره.. (إسماعيل) أخي.. نعم.. هو الأصلح لهذه المهمة.. حتمًا يعرف شخصًا أو اثنين ممن لهم سلطة قوية ونفوذًا يحققان ما أتمناه لابنتي.. يا رب يا كريم.

دخلت متجره لأول مرة منذ أن افتتحه، ودون مقدمات شرحت له كل شيء والدموع تنهمر من عيني كالمطر، فرقَّ (إسماعيل) لحالي وقرر أن يساعدني بأي ثمن.. كاد يوافق على طلبي ويأتي معي في البداية حتى ينهي الأمر بنفسه، ولكنه وجد شيئًا أفضل لفعله ويحقق لي الفائدة من كل الجهات.. شيئًا سيعطيه لي مجانًا لأني أخوه الوحيد ويعلم ظروفي جيدًا.

غاب قليلًا في الداخل قبل أن يخرج حاملًا تلك اللحية الطويلة في يد، وفي الأخرى أفضل جلباب عنده مع تلك الزجاجة الصغيرة من المسك.. في البداية استنكرت بشدة أن أخالف ضميري ومبادئي، لكني بعد برهة ترددت ثم ضعفت وفي النهاية تخاذلت وقبلت...

وفي غضون أسبوع واحد أجرت طفلتي العملية بنجاح تام، وتجاوزت الخطر لتعود وتمارس حياتها الطبيعية..

أما أنا فتغيرت حياتي إلى النقيض تمامًا.. أصبحت الشيخ (سعيد) المعروف عنه تقواه وورعه، وأصبح الجميع في كل مكان يحبني ويحترمني كثيرًا.. وحتى يومنا هذا لم أخلع الجلباب ولا اللحية التي أخذتهما من (إسماعيل)، وظللت أحافظ عليهما بحياتي.

فهما الآن يمثلان حجمي ومكانتي التي أستحقها.. في بلد اللِّحى.

كبش الفـــداء

الأمور تجري على ما يرام.. أعلم هذا من تقارير رجالي ومساعديني الأوفياء.. الأمن مستتب، والمواطنون سعداء بحياتهم للغاية.. يعمل كل منهم في الوظيفة التي تناسبه تمامًا، ونمنحه راتبًا شهريًّا يكفيه هو وأولاده، بل وحتى أحفاده أيضًا.. هناك بعض المشاكل البسيطة بالطبع.. ولكنها مشاكل يثيرها فئة قليلة مندسة وسط شعبي، ونحكم سيطرتنا عليها رغم كل شيء.. ثم من قال إن المشكلات لا تعطي للحياة طعمًا؟.. بالعكس، إنها تمنح شعبي اطمئنانًا على أننا قادرون على احتواء كل موقف مهما كانت صعوبته، وأننا نرعى أولًا وأخيرًا مصالح المواطن محدود الدخل بشكل مستمر ومتواصل لا يجعلنا نجد وقتًا حتى لحياتنا الشخصية.. الحياة إذن جميلة ومريحة وأحوال البلد في أفضل شكل ممكن، فما المشكلة إذن؟

المشكلة في نائبي.. ذلك الرجل الصارم الذي عودته الحياة العسكرية على الجدية وعلى الشك في كل شيء وأي شيء.. لدرجة أنه أصبح يشك في وزرائي المخلصين.. تصوروا.. يحذرني طوال الوقت منهم ومن ألاعيبهم ودسائسهم.. يحاول باستماتة أن يقنعني بأنهم يحكمون البلد في النهار، ويديرونها بوسائل غير شرعية في الليل.. يقضي طوال وقته معي في هذا الكلام الفارغ الذي لا يصدقه أحد، ثم في النهاية يحدق في بثبات ويقول:

- الخطر قادم يا سيادة الرئيس.. فاحذره.

لا أعلم أي خطر هذا الذي يهددني وأنا رئيس البلاد بطولها وعرضها.. من الذي يجرؤ على الاقتراب مني؟.. إن من يفكر في هذا لهو إنسان جدير بالدراسة حقًّا.. حين أخبر نائبي بهذا

ينظر إلي مليًّا في ضيق ثم يدير ظهره ويغادر، وأنا أعلم جيدًا أنه يضرب أخماسًا في أسداس من كلامي.. ولكن ماذا تتوقعون مني أن أفعل؟.. أرى في تقارير رجالي أن كل شيء يسير كما أريد له أن يكون فما الذي يمكن أن يعكر صفو هذا إذن؟.. للأسف لم أكن أعرف أن الإجابة ستصلني قريبًا.. وقريبًا جدًّا.

تريدون أن تعرفوا ما حدث؟.. حسنًا، سأقص عليكم.. بدأ الأمر في تلك الليلة السوداء التي اقتحم نائبي فيها مكتبي دون استئذان ليبلغني بآخر شيء كنت أتوقعه، والذي قلب حياتي رأسًا على عقب وغيرها إلى الأبد.

- ثورة؟.. الشعب سيقوم بثورة ضدي أنا؟.. مستحيل.

قلتها في انفعال عارم وأنا أهب واقفًا من خلف مكتبي، في حين ارتمى نائبي على أقرب مقعد وهو يلهث في قوة، بينما الكلمات تخرج متقطعة من فمه:

- لقد.. لقد علمت.. إنها الثورة.. الشعب سيقوم بثورة عارمة تجتاح البلاد من شمالها وحتى الجنوب وينوون بها الإطاحة بالحكومة و..

وصمت لحظات وهو يخشى أن يرفع عينيه إلى وجهي قبل أن يقول في خفوت:

- و.. بك.

ارتميت على مقعدي وقد عجزت ساقاي عن تحملني، وبرغم يقيني أن هذه هي النتيجة الحتمية لأي ثورة في العالم، إلا أن الكلمة لطمتني في عنف لدرجة لم أقدر بعدها على التفوه حتى بحرف واحد..

ماذا يحدث؟

الشعب ينوي الإطاحة بي أنا؟!!

بعد كل ما فعلته لهم؟!!

مستحيل.. مستحيل.

نطقتها في قوة حازمة جعلت نائبي يرفع عينيه إلي في حيرة، لكني بادرته في عصبية شديدة:

- لا تنظر إلي هكذا كالمأفون وافعل شيئًا.. شدد العقوبات.. افرض حظر تجول.. انشر الجيش في الشوارع.. المهم أن تمنع تلك الثورة من الوصول إلى قصري.. أفهمت؟

قال في تلعثم واضح:

- ولكن.. ولكن يا سيدي.. إذا قامت ثورة الناس فلن يقدر الجيش أبدًا على احتوائها مهما حاولنا.. سنريق أنهارًا من الدماء فحسب دون أن نحقق شيئًا.

لوحت بيدي في انفعال وأنا أقول:

- وما البديل في رأيك؟!.. أن يقتلعوني من على عرشي هذا؟!.. أم يعدموني في ميدان عام؟!

تردد الرجل للحظات محاولًا السيطرة على انفعالاته، قبل أن يحسم رأيه فقال بسرعة:

- لربما كان هناك حل آخر يا سيدي.

أطلت نظرة تساؤل من عيني وأنا أتطلع إليه في حيرة، فتلفت حوله في قلق قبل أن يميل نحوي ويقول في همس كما لو أنه يبوح بسر خطير:

- نحتاج إلى كبش فداء.

تراجعت للوراء وقد أدارت الكلمة ذهني فوجدت نفسي أرددها وراءه في استغراب، بينما تابع هو بحماس:

- إذا كانت الناس في حالة هياج وثورة بهذا الشكل، فالحل هو إعطاؤها مسكن قوي يخمد جذوة الثورة في أعماقهم وفي نفس الوقت يسمح لنا بالتقاط أنفاسنا والبحث عن حل بديل وعملي.. وهذا المسكن هو كبش.. كبش فداء.

بدأت الصورة تضح رويدًا رويدًا أمامي.. لكني أردت مع هذا أن أستمع لخطته كاملة، فأشرت له أن يتابع، حينها التقط نفسًا

عميقًا من الهواء واستطرد:
- أعلم أن هذا ليس بالحل المثالي، ولكن أعتقد أنه سيكون فعالًا، وخاصة إذا ما أحكمنا القصة.. كل ما علينا فعله هو البحث عن شخص.. أي شخص يحتل مركزًا مرموقًا في الدولة وفي نفس الوقت ارتكب الكثير من الموبقات في حق الناس، فنعزله من منصبه هذا ونقدمه للمحاكمة، وبهذا نوهم الناس بوجود عدالة زائفة ونقنعهم أن ليس هناك من هو أعلى من القانون فتهدئ ثورتهم قليلًا حتى نجد حلًّا يقضي على المشكلة من الجذور.
قالها وصمت تمامًا ليعطيني الفرصة لأزن كلماته تلك، بينما شبكت أصابعي أمام وجهي وغرقت في تفكير عميق.
كبش فداء.. فكرة عبقرية حقًّا.. فقط تحتاج إلى حبكة قوية كما قال هو، وقبل كل شيء نحتاج إلى الشخص المناسب ليلعب الدور الذي اخترناه له.. ولكن من يكون؟.. من؟

وحين رفعت عيني إليه أدركت كم كنت صائبًا حين اخترت هذا الشيطان ليكون مساعدي الأول، فمن الثانية الأولى فهم ما أفكر فيه، ونهض ليغادر الحجرة دون أن ينطق بحرف واحد.. وفي خلال ساعة واحدة فحسب كان قد وضع أمامي ملفًّا متخمًا بالأوراق يحوي تقارير مفصلة عن وزرائي المخلصين لأختار منهم غايتي..
أنا أحبكم حقًّا يا رجال.. ولكنها حياتكم مقابل حياتي.. فلن أفكر مرتين.
وهكذا كما توقعتم أمرت بعدم توصيل أي اتصالات أو مقابلات طوال هذا الاجتماع المنفرد...
و...
وفتحت الملف.
لكم راعني ما أرى، وهالني ما كان مخفيًّا عني كل تلك

الفترة.. إنهم ذئاب وليسوا بشرًا.. ذئاب تملك في أيديها مصير وحياة الملايين.. فساد ورشاوى وصفقات فاسدة تخرج من قلب الحجرات الفخمة والمقاعد المريحة.. جاه وسلطة ونفوذ ومال، ورغم كل هذا تخرج قراراتهم لتحرق وتدمر لا لتبني أو تجلب خيرًا أبدًا.

غلى الدم في عروقي وأنا أطالع الملف.. رجالي الأوفياء الذين أعتمد كلية عليهم، هم من يستغلون مناصبهم كي يحققوا مصالحهم الشخصية؟.. أقسم أني لو تجاوزت هذا الموقف على خير لتكونن غضبتي عاتية تطيح بهم من أبراجهم العاجية تلك.. ولكن الأهم فالمهم.. فلأجد أولًا واحدًا منهم يصلح للدور الذي اخترته له قبل أن يلحق به الآخرون قريبًا.. ولكن من سيكون؟.. الاختيار عسير حقًا.

وزير الصحة؟.. نعم.. إنه مناسب.. الناس في ثورة من كل تلك الأمراض التي تحاصرهم وتسحقهم الواحد تلو الآخر، ما بين أمراض يعاني منها العالم، وأخرى نسيها الناس وعفا عنها الدهر.. أما عن علاجك وعلاج أولادك فلن تجده إلا في المستشفيات الاستثمارية، أما مستشفيات الدولة فالفساد نخر في عظامها وليس في وسعك سوى أن تخرس وتقف في الطابور الطويل كغيرك لتنتظر العلاج الذي يناسب قدرتك المادية، فإما أن يأتي العلاج، وإما أن يقضي الله في أمرك أولًا..

أم وزير الإسكان؟.. لا توجد شقة صالحة لسكن حمار جر، فما بالك بسكن زوجين في مقتبل العمر؟.. الشقق تباع بالملايين في مناطق، والعشوائيات تتوغل وتتسع أكثر فأكثر حتى تكاد تغرق البلد بأسره.. ولا يحصل على شقة متوسطة في أدنى إسكان للشباب سوى من يغرق المكاتب والموظفين بإكراميات لا حصر لها، ويتحمل الذل والمهانة من أجل شقة تضمه وأسرته

المستقبلية وفي النهاية.. يا ليته ينالها.

وماذا عن وزير القوى العاملة؟.. لا أعتقد أن أحدًا سيكترث له إن تم عزله أم لا.. ولكن ماذا عن الشباب؟.. هل سيغفرون له جلوسهم على المقاهي وفي البيوت بانتظار الوظيفة؟!.. هل سيغفرون له وصولهم للثلاثين من العمر، بل وأكثر وهم بعد في بيوت آبائهم، يأخذون مصروف أيديهم منهم؟.. لا أعتقد ذلك.. إن وزيرًا كهذا يصلح للاختيار.. دعونا نبقيه معنا قليلًا..

وزير الداخلية؟.. أممم.. يبدو مناسبًا.. لم يسلم أحد المواطنين من سياط جلاديه.. إهانة واستخفاف بالمواطنين.. سيطرة وتحكم بالضعفاء دون أن يقدر أحد على الاعتراض أو حتى المناقشة.. لكن الوضع هنا يختلف قليلًا.. فالرجل قد توصل لحيلة كبش الفداء تلك قبلي.. متى تشتعل الناس وتثور ألقي إليهم ببعض الضباط الفاسدين لتتم محاسبتهم، فيعطيهم بهذا إحساسًا بالعدل والمساواة، وينام الجميع سعداء.. أرى الرجل مناسبًا للغاية، ولكن.. لننتظر حتى نرى الباقين.

آه.. الطامة الكبرى.. وزير التموين.. إنه كنز حقًّا.. أوراقه تحوي وحدها مئات الصفقات للأغذية الفاسدة والقمح غير الصالح للاستخدام الآدمي من شتى أنحاء العالم لدرجة تجعلني أتساءل حقًّا.. ماذا يأكل هذا الرجل يا ترى؟.. في الواقع أنا أتساءل ماذا آكل أنا أصلًا؟.. هل يقدمون لي مما يأكله الشعب؟.. أم أن غذائي وغذاؤهم يختلف؟.. ينبغي أن أتحقق بنفسي من هذا.. ولكن ليس الآن.. ليس الآن.

من تبقى منهم ولم يَطُله الفساد؟.. وزير التعليم؟.. أم وزير الصناعة؟.. لا لا.. إنه وزير الخارجية.. أم...؟

يا إلهي.. من هؤلاء؟.. أهم رجالي الأوفياء الذين استأمنتهم على شعبي وبلدي؟.. أهم من وثقت فيهم وفي ولائهم وقدرتهم

علـى القيـادة؟.. اللعنـة.. إن الـدماء تغلـي فـي عروقـي وتـدفعني ثورتي لإقالتهم جميعًا.. ولكن ينبغي أن أضبط أعصابي.. ينبغي أن أهدأ وأختار منهم واحدًا فقط.. ولكن من؟.. من؟.. أيهم أصلح لأن يكون كبش فداء؟.. أيهم أكثر من يستحق هذا؟

جريدة صوت الشعب

"في سابقة غريبة من نوعها، قدم رئيس الجمهورية استقالته صباح اليوم، معلنًا انتهاء مسيرة دامت لعشرات السنوات وهو جالس على كرسي الحكم، وقد رفض السيد الرئيس - سابقًا - أن يقدم أي اعتذارعن قراره الحاسم، أو أن يلقي تصريحًا يفسر ما أقدم عليه، ويأتي هذا القرار متزامنًا اليوم مع ذكرى ميلاد الرئيس الغالي، والتي كانت البلاد تتأهب للاحتفال به، حيث كان السيد نائب الرئيس هو المشرف الأول على تلك الاحتفالية التي كانت ستشمل طول البلاد وعرضها، ولكن حال هذا القرار دون وقوع ذلك.. هذا وطبقًا لدستورنا فإن السيد النائب يتولى مكان رئيس الجمهورية الأسبق بعد أن تنحى عن الحكم، فيجلس مكانه على كرسي العرش ليتولى مهام بلدنا الحبيب ويبدأ عهدًا جديدًا شعاره الإصلاح والتغيير والاهتمام بمحدودي الدخل، بالضبط كما كان الحال مع سابقيه.. هذا وقد صرح السيد المسئول بأن.....".

وداعًـا.. يا حبيبتي

صديقتي الأعز/ سارة...

أرى الدمع يترقرق في عينيك الجميلتين.. أرى نظرة الذهول فيهما وأنا أخاطبك بهذا اللقب.. (صديقتي) وليس (حبيبتي)..

أعلم أنك تتعجبين حقًّا مما أفعل الآن.. فلأول مرة أرسل لك خطابًا مثل باقي البشر، رغم أني أول من كان يسخر ممن يرسل خطابًا في زمن الرسائل الإلكترونية والهاتف النقال..

ولكني.. ربما الآن فحسب.. أدركت أن هناك من الكلام ما لا ينفع إلا من وراء ستار يمنع الإنسان أن يرى نظرات من يواجهه، ولهذا أرسلت لك هذا الخطاب.. لم أكن لأحتمل نظراتك وأنتِ تسمعين مني ما لم تتخيليه قط طوال ثمان سنوات لم تسمعي مني فيها سوى كلمات الحب التي تقطر هيامًا وعشقًا.. ثمان سنوات منذ رأيتك أول مرة..

كنت طالبًا في المرحلة الإعدادية لا أهتم بشيء من حولي سوى للعبث والمرح مع أصدقائي فحسب.. حتى أتيت أنت...

في الدرس الذي نجتمع فيه دون أن يفقه أحدنا منه حرفًا رأيتك لأول مرة...

ملاك يمشي على قدمين.. حينها انتبهنا جميعًا واعتدلنا في مقاعدنا.. واستمعنا لأول مرة إلى أستاذنا وهو يقدمك إلينا...

(سارة)...

يا إلهي.. كم خفق قلبي بمنتهى العنف وأنا أحدق فيك بصورة لفتت كل الأنظار، وجعلتك ترفعين عينيك إليَّ في استغراب، ولكني لم أنزعج ولم أشعر بالإحراج.. ذبت تمامًا في عينيك السوداوتين حتى النخاع.. حتى أفقت على نهاية الدرس دون أن ألتقط حرفًا مما حولي، فقط غادرت بعدها إلى بيتي وقد عزمت

أمرًا قرأه كل أصدقائي في عيني..
أنت لي.. ولن تكوني لأحد سواي...
وبالفعل قضيت أيامًا وشهورًا وأنا أسعى لنيل حبك وإعجابك حتى فعلتها، ووقفت حينئذ حائرًا لا أدري.. أأفرح لأني حصلت على الحب لأول مرة في حياتي أم أفرح لأني اقتنصت الشيء الذي نافست أصدقائي عليه؟!
لم أدر حقًّا ما كان شعوري حينها.. لقد تعودت منذ صغري ألا أدع شيئًا ينال إعجابي إلا واقتنصته اقتناصًا، وها قد فعلت هذا معك، فما الذي يربكني إذن؟!
ولكني كنت أعرف الإجابة فعلًا.. لقد كنت حينها - ولأول مرة - غارقًا حتى الأذنين في حبك..
من رغبتي في نيل رضاك أحسست أني أحبك.. من تغير طباعي مع أهلي شعرت أني أحبك.. من تفوقي في دراستي أيقنت أني أحبك...

حتى وبعد أن فرقتنا دراستنا في الثانوية كنا نسرق لحظات خاطفة بعيدًا عن أعين الكبار التي تحرم كل شيء، وبعيدًا عن أعين المتلصصين ممن نعرفهم حتى لا يشون بنا..
ولكني في هذا الوقت كنت أمتلك قوة وعزيمة تمنحني قدرًا هائلًا من التحمل والصبر.. تحملت صراعي المستمر مع أهلي كلما تسربت إليهم كلمة من هنا أو هناك عنك.. تحملت إهانات والدي لي المستمرة وغضبه منك بدون مبرر، أو على أقل تقدير كان المبرر في وجهة نظره هو أن الفتاة التي تصادق شابًّا لا تستحق لقب زوجة وأم، بل ينظر إليها على أنها خاطئة تستوجب العقاب والقتل...
ولكن رغم كل هذا تحملت من أجلك فقط يا حبيبتي.. تحملت حتى اجتزت تلك العقبة معك وانطلقنا إلى العالم الذي تخيلنا

حريتنا فيه.. الجامعة.
فمع أول يوم في الدراسة أدركت أن المكان مثالي جدًّا للقائنا وأمام الجميع..
الكل يصادق فتيات ويتجول معهن، فما الذي سيلفت الانتباه إلى شابين مثلنا؟!
ولكني كنت مخطئًا وبشدة..
فالمكان الذي تخيلته لنا وحدنا فقط.. لم أدرك أنه لي ولك.. ولكل الشباب الآخرين..
المكان مفتوح عن وسعه لنظرات الفضوليين عليك.. مفتوح على مصراعيه لكل شاب أن يلقي كلمة ساحرة أو تعبيرًا عذبًا على مسامعك حين لا أكن متواجدًا فيها معك...
وكدت أجن...
أنت فتاتي.. فتاتي وحدي.. ومن يقترب منك فليكن مستعدًّا للمخاطرة بحياته نفسها..

حاولت إقناع نفسي بأني رجل صعيدي هكذا، أحمي فتاتي الصغيرة من أولئك الذئاب، ولكن حينها كان هذا الصوت الصغير في عقلي يعابثني ويقنعني بأن ما أفعله هو مجرد حب تملُّك لا أكثر ولا أقل.. رغبة في حماية مقتنياتي من أن يعبث بها الآخرون...
لم يكن بيدي شيء لأفعله سوى أن أمنعك أنت، طالما لا أقدر على منع الملايين من أولئك الأوغاد من الاقتراب منك.. أجبرتك على البقاء في المنزل، وأجبرتك على عدم التحرك إلا بإذن مني، وحتى في هذه الحالة لم أكن لأسمح لك بالتحرك أيضًا..
حتى محاضراتك نفسها، منعتك منها قسرًا إلا لو كنت فيها معك وبجوارك..

منعتك من التحرك مطلقًا رغم أني كنت أجوب الطرقات مرحًا وعبثًا مع هذا ومع ذاك، وحين يدق هاتفي وأرى اسمك يعلن عن نفسه، كنت أرتجف خوفًا أن تعرفي بماأفعل، فتطالبينني بمثل ما أطبقه على نفسي.. أو على الأقل بعضًا من الحرية لك..

يومًا بعد يوم وأنا أطبق نفس السيناريو معك بدقة، دون أن أتخيل أني بهذا أضيق الحبل حول عنقك أكثر فأكثر، وتغافلت عن الجزء الأعظم والأخطر.. لحظة الانفجار..

والغريب أنه لم يكن انفجارًا بمعنى الكلمة.. ولكنه كان هروبا من العباءة التي طوقتك بها وأخفيتك بعيدًا عن أعين الناس فيها...

كنت قد قضيت أسبوعًا ألوم نفسي على ما أفعله من ورائك وأجبر نفسي على الالتزام في المنزل، ولكن من اليوم الأول عجزت عن البقاء فغادرت، وكان هو اليوم الذي رأيتك فيه مع تلك المجموعة من الفتيات والشباب، فتمزحين مع هذا ويميل عليك ذاك فيهمس في أذنيك بكلمة، حينها تنطلق منك ضحكة عالية تلفت انتباه كل من حولك...

كنت على استعداد للغضب والثورة ثم تمر المشكلة بسلام.. لكن ما قتلني هو تعليق هذا الشاب وهو يغمز لي بعينه في خبث ويخبرني - بنبرة الناصح - أن هذا المشهد يحدث كثيرًا.. كثيرًا جدًّا.. وحين آتي أنا تعودين لثوب الملاك الرقيق الذي لا أتخيل لحظة أن يلوثه شيء أبدًا.

وهنا انفعلت...

ثُرت...

بكيت...

وصرخت...

قاطعتك لأيام وشهور، وقررت ألا أراك ثانية أبدًا..

وبالفعل لم أرك كما أردت.. ولكني رأيتها هي..
برقتها وجمالها وهدوئها المثير في عالم جنوني يدور من حولها دون أن تلقي بالًا إليه أو تكترث له حتى...
جذبتني (رحمة) إليها، ورأيت فيها صورتك البريئة التي رأيتك عليها منذ ثمان سنوات، فدفعني هذا لأنسى كل ما مر بي، وأنغمس في قصة حب جديدة لم أكن لأتصور أن يدق قلبي فيها ثانية...

ولكن الغريب أن مذاقها في فمي كان مألوفًا..
مذاقها كان بالضبط كما كنت أشعر معك في أيامنا الأولى، ورويدًا رويدًا وجدت نفسي أقارن بينكما في كل شيء وأي شيء..
الشكل..
التصرفات..
الإحساس..
قارنت بعقلي وبقلبي، ولعل هذا ما جعلني أقف حائرًا في طريقي..
ماذا أفعل؟!
ماذا؟!

أنت في حياتي حتى ولو لم أرض بهذا.. كل تلك السنوات التي قضيتها معك تقف حائلًا بيني وبينها.. كل ما فعلته لك ومعك أراه متجسدًا أمامي يحاسبني بقسوة عما اقترفته في حقك...
قد أكون أجبرتك حقًا على الانفجار من كل هذا الضغط الهائل الذي وضعتك فيه.. ولكني لم أكن أفعل هذا إلا لأني أردتك لي لوحدي.. سمِّه أنانية، سمِّه غباء.. المهم أن تلك كانت طريقتي في الحب ولم أظن لحظة أنها خاطئة.. كل ما أفكر فيه الآن هو كيف

سنعود كما كنا من قبل؟.. كيف أعود لأثق بك من جديد بعد أن كشفت أكاذيبك وخداعك؟.. أعلم أنك لم ترتكبي إثمًا ولكن يكفيني الشك ويكفيني ألا أعود لأثق بك تلك الثقة العمياء التي عهدتيها مني.. مستحيل.. ليس بعد ما حدث.

قد تسخرين مني لما سأقوله، ولكني ما زلت أتعامل بنفس الشك الأحمق مع (رحمة).. وضعت نفس القيود عليها، فرأيتها مسكينة مسالمة، لا تبغي شيئًا إلا رضائي وحبي لها...

لم أتعلم الدرس من المرة الأولى وما زلت كما كنت دومًا أفرض شخصيتي الضعيفة على فتاة لا ذنب لها إلا أنها تحبني بجنون، في الوقت الذي أستمتع فيه بوقتي مع كل فتاة دون رقيب أو محاسب...

أنا أناني يا (سارة).. أناني بكل المقاييس، وبكل لغات العالم.. ولكني لأول مرة سأغلب أنانيتي المعهودة تلك وأسألك وأسأل الجميع من حولي...

هل ظلمتك حقًا؟!

أم قد تصرف كل منا بأنانية نحو الآخر وانتهى الأمر؟!

وماذا عن (رحمة) التي أوقن الآن أني لا أحب سواها؟!

هل أظلمها أيضًا بتصرفاتي؟!

كل تلك التساؤلات تدفعني للجنون.. وترغمني على كتابة هذا الخطاب إليك.. لربما منه تعلمين ما كنت أفعله من ورائك طوال علاقتنا.. حينها ربما أنت من سيقرر التخلي عني...

إن الحياة لا تقدم لنا خيارات يا (سارة).. بل تجبرنا على ما لا نطيق.. وقد قررت أن أفعل ما لا أطيق...

لقد انتهى كل شيء بيننا يا (سارة).. انتهى كل شيء يا أول من أحبه قلبي.. ولكني برغم هذا لن أنساك أبدًا.. ولن أنسى أني قد جئت يومًا ظلمتك فيه لأقول ما يعتمل في قلبي، ولأعتذر لك بحق عن كل شيء..

حينها..

وحينها فقط..

سأدير وجهي بعيدًا لأتحاشى عينيك الدامعتين، وأنا أردد في خفوت:

- وداعًا..

يا حبيبتي...

صديقك/ أحمد

وســاد السكــون

انطلقت الزغرودة الطويلة تدوي في قلب بيتنا الصغير، معلنة وصول العريس المنتظر مع أسرته.. وفي حماس وضعت شقيقتي الكبرى، اللمسات الأخيرة على فستاني قبل أن تغادر الحجرة على عجل، لتستقبلهم مع أبي وأمي وتقدم لهم مشروبًا ما.. أما أنا فظللت على جلستي تلك، أتطلع إلى شكلي في المرآة، وأنا بهذا الفستان الذي اختارته أمي بنفسها خصيصًا لتلك الليلة.. كان الجميع يتحدث من حولي في الحجرة عن العريس ومركزه وأمواله الطائلة.. بينما أنا في عالم آخر تمامًا.. أعود بذاكرتي للوراء، وأتذكر كيف عرفنا هذا العريس في الأصل.. كان ابنًا لأحد أصدقاء أبي في العمل.. قابله مرة مصادفة، ومن حينها وهو يكاد يطير به فرحًا.. تشبث به في استماتة، وتصور أنه كنز لا يحق لأحد أن يمتلكه سواه..

طبعًا كما لكم أن تتصوروا، لم يأخذ برأيي.. لم يحاورني كما أمر الشرع والدين وحتى العرف المتبع.. أخبرني بالأمر فقط على طريقة: جعلوه فانجعل.. وفي المقابل تصرفت بالضبط كما عهدني دومًا.. أطرقت بوجهي أرضًا حين علمت بالخبر دون أن أنطق بحرف واحد، فظن بي الخجل وشجعه ذلك على المواصلة في الأمر.. وحتى بعد هذا، لم أعترض أو حتى أنبس ببنت شفة.. كنت أتابعهم في البيت وهم يعملون على قدم وساق لكي يظهر كل شيء بصورة ممتازة ونلاقي قبول العريس المنتظر، فأموت ألمًا.. وأقتل في داخلي أي إحساس بالرفض أو الممانعة.. لقد اختاروا لي كل شيء في حياتي ولم أعترض أبدًا.. لماذا ستكون تلك المرة مختلفة إذن؟

في تلك اللحظة دوت الزغرودة من جديد بالخارج، ليعقبها

دخول شقيقتي الحجرة وهي تخبرني بأن أبي يريدني بالخارج لأقابل الضيوف.. ألقيت نظرة أخيرة على نفسي في المرآة، ثم غادرت حجرتي متجهة إليهم.

دخلت وأنا أطرق بوجهي أرضًا، بينما دقات قلبي تكاد يسمعها الجالسون.. اتخذت مجلسي في صمت ولم أرفع بصري لحظة واحدة، محاولة قدر الإمكان أن أتماسك حتى لا يظهر ارتباكي الرهيب وحيائي في تلك اللحظة.. فبرغم كل شيء إلا أنه لا يوجد فتاة في العالم لا ترتبك في موقف كهذا، حتى ولو كانت تمقت العريس وتمقت الزواج نفسه.. مرت الدقائق والجميع يتبادل أطراف الحديث، ومعهم يهدأ قلبي المضطرب أكثر فأكثر، وأبدأ في اختلاس نظرات خجلى إلى الضيوف.. أو بمعنى أدق، إلى عريسي المنتظر.

كان يجلس في مواجهتي تماما وبجواره شاب يبدو من ملامحه أنه شقيقه الأصغر سنًّا، بينما جلست في الناحية الأخرى والدته وهي تتجاذب أطراف الحديث مع أمي.. كان - والحق يقال - وسيمًا إلى حد كبير.. له ملامح هادئة وجذابة تبعث الراحة في نفسك، وأضفت عليه لحيته الخفيفة المشذبة منظرًا جميلًا وقورًا للغاية.. ورغم أن عينيه العسليتين اختفتا خلف المنظار الطبي الرقيق إلا أني تطلعت إليهما لحظات وقد سرقني جمالهما والطيبة والحنان اللتين تسكنان فيهما.

لسبب ما شعرت بالارتياح يملأ قلبي وأنا أتطلع إلى ملامحه وإليه نفسه بالكامل، وهو يتبادل بعض الكلمات البسيطة أو المزاح الهادئ مع أسرتي قبل أن يعود ليطرق بوجهه أرضًا في خجل، يندر أن تجد مثله في شاب هذه الأيام.. خجل شعرت بصدقه على الفور، وأنه لا يتصنَّع شيئًا منه على الإطلاق و...

فجأة انتفضت في مقعدي مع صوت ضحكة أخيه العالية،

فوجدت نفسي أرمقه في اشمئزاز واضح.. كان يمازح أبي ويتحدث معه كما لو كان يخاطب صديقًا له على القهوة.. لا ينقصه سوى أن يبصق على الأرض ويطلب شايًا بالحليب.. حتى شقيقه تطلع إليه لحظة في حرج بالغ، قبل أن يعود ليكمل حديثه مع أمي في رقة شديدة، وبتهذيب يليق بـ"لورد" وليس بشاب صغير السن مثله.. يا إلهي.. لماذا يخفق قلبي بهذه الصورة؟.. ماذا بي؟!.. كيف تسلل إلى قلبي ونجح في اصطياده بتلك السهولة؟

وبلا وعي وجدت نفسي أبتسم ابتسامة دافئة وأنا أنظر إليه دون أن ينتبه.. ولكنه حين التفت بغتة تلاقت عينانا للحظة واحدة.. لحظة كانت كافية ليقرأ في عيني مشاعري تجاهه.. لقد وقعت في حبه بالفعل.. لم أعرف طباعه أو أخلاقه.. لم أعرف حتى ما اسمه.. كل ما أعرفه أني أتمناه لنفسي.. أتمناه كما لم أتمنَّ شيئًا من قبل.. إني أقبل به.. فقط ليسألوني عن رأيي وسأقبل به على الفور.

- لم لا تشرب العصير يا (فؤاد)؟

قالها أبي موجهًا حديثه إلى أخيه هذا.. فأطلق ضحكة عالية سخيفة دون مبرر وقال:

- لا.. هذه الأشياء لا تنفع معي.. أرغب في شاي.. شاي أسود ثقيل.

التفت أبي إليَّ بنظرة ذات مغزى، ففهمت على الفور ما يعنيه.. برغم أن أختي كانت جالسة معنا إلا أنه أراد أن يعطيني فرصة لأنسحب في هدوء وأبقى وحدي قليلًا ليزول الباقي من خجلي وحيائي.. وبالفعل نهضت متوجهة إلى المطبخ بعد أن رمقت هذا الـ(فؤاد) بنظرة نارية كادت أن تقتله.. الحمد لله أن أحدًا لم يرني أفعل هذا.

وفي المطبخ بدأت بعمل الشاى للجميع في لمح البصر.. أردت الانتهاء منه سريعًا لأعود مجددًا إلى الحجرة، لولا دخول أمي إلى المطبخ وعلى شفتيها تلك الابتسامة التي أعرفها جيدًا...

- (جميلة).. ما رأيك يا صغيرتي في عريسك؟.. إنه ممتاز بلا شك.

نظرت إلى أمي مليًّا ولم أرد.. لم أجد داعيًا لهذا بعد أن سألتني هي وأجابت نفسها.. كل ما فعلته أن أشحت بنظري بعيدًا في خجل، فأعقبت أمي في حنان:

- إنهم يتفقون على كل التفاصيل الآن.. مبارك لك يا حبيبتي.

قالتها وهي تفسح الطريق لي كي أمر بصينية الشاي، بينما تبتسم لي مجددًا.. ابتسامتها هذه المرة ملأتني سعادة فوق سعادتي.. ابتسامتها نبهتني أن اليوم هو أول يوم في حياتي لن أتضايق من اختيارهم شيء ما لي.. بل العكس، سيكون أول يوم أتقبل اختيارهم هذا وأكاد أطير به فرحة.

عدت إلى الحجرة، حاملة صينية الشاي، وأنا أرسم على شفتي أسعد ابتسامة لي في عمري كله.. انتبه لي أبي في تلك اللحظة فتوقف عن الكلام، ورفع وجهه إليَّ قائلًا بابتسامة حانية:

- قدمي الشاي لعريسك يا (جميلة).

احمر وجهي في حياء عذري وأنا ألتقط أحد الأكواب من الصينية وأعطيه لعريسي بابتسامة خجلي و...

- لقد عنيت (فؤاد) يا صغيرتي.. يبدو أنه قد اختلط عليك الأمر.

اتسعت عيناي في ارتياع وقد صفعتني الجملة على وجهي بمنتهى القسوة مع ضحكة أبي القصيرة التي أطلقها في حرج من هذا الموقف.. أحسست بالدماء تهرب من وجنتي، وساقي لا تكاد تحملني، بينما الدوار يغزو عقلي بشدة.. فقط ليهرب الكوب من

بين أصابعي ويسقط ليسيل ما به على الأرض.. ومن أعماق قلبي كاد الصراخ يهرب بغتة لولا أن كتمته شفتاي في اللحظة الأخيرة وأبقته مقيدًا في صدري:

-مستحيل.. (فؤاد) هو العريس؟.. لا.. ليس هو.. ليس هو.

هب أبي من مجلسه وهو يهتف:

-خيرًا.. خيرًا.. لا تقلقي يا صغيرتي.

هرعت أمي لتمسح ما انسكب على الأرض، بينما تركت أنا هذا كله وتطلعت إليه.. إليه هو فقط.. وعيناي تصرخ به مستغيثة:

- أنقذني أرجوك.. لا تتركه ينالني.. أنا لا أريد أن أكون لغيرك.. أرجوك.

عقدت والدته حاجبيها بشدة، وهي تتطلع إلى الموقف دون أن تنطق بحرف واحد.. بينما هو بهت في مكانه وهويحدق إليَّ غير مصدق لما يحدث.. أعلم أنه قد فهم.. أعلم أنه قد أحس بي وبمشاعري تجاهه، ولكن ليس بيده شيء ليفعله.. اكتفى بأن يلوذ بالصمت تمامًا أمام نظراتي إليه، قبل أن يطرق بوجهه أرضًا ليتحاشى عيني الدامعتين.

هنا هتف أبي بمنتهى الغضب وهو يتابع هذا المشهد الغريب:

-(جميلة).. لماذا تقفين هكذا يا فتاة؟.. هيا.. اعتذري لعريسك حالًا.

التفت إليه لأقول في تهدج ودموعي تنهمر كالمطر:

-لا يا أبي.. أنا آسفة.. ولكني لن أقبل به.. لن يكون لي أبدًا.. أبدًا.

هوت كلماتي على أبي كالصاعقة، وهو الذي لم يسمع مني رفضًا في حياته قط.. وجدته ينكسر على أقرب مقعد إليه غير مصدق وهو يتمتم في خفوت:

- ماذا تقولين يا (جميلة)؟

مسحت دموعي بكفي وأنا أسرع لأهرب من المكان متجهة إلى حجرتي، ولكني لم أجسر على الدخول وإغلاق الباب من خلفي.. وقفت أرمق عريسي الوهمي من وراء الباب وقلبي لا يطاوعني أبدًا أن أغلقه أمام نظراته الملتاعة.. وهنا نهضت الأم في سكون وحملت حقيبتها لتلقي نظرة أخيرة على أبي وأمي قبل أن تتجه إلى باب الشقة ومن ورائها (فؤاد) يتبعها في صمت.. وعند الباب توقفت للحظة لتنظر إلينا قائلة في أسف:

- كل شيء قسمة ونصيب.

قالتها ثم استدارت مغادرة البيت في هدوء، دون أن يعترض أحدنا أو ينطق بشيء وقد ألجم الموقف كل الألسنة.. أما هو فقد ألقى نظرة أخيرة عليَّ ثم أشاح بوجهه بعيدًا، كاتمًا تلك الدمعة من الهرب من عينيه، قبل أن يستدير بدوره ليرحل وراء أسرته في صمت و....

وساد السكون.

وقفت أتطلع من وراء باب الحجرة إلى المكان الذي كان يقف فيه منذ لحظات وفي عقلي ألف سؤال وسؤال.. بقدر ما كان يشغلني ما سيحدث لاحقًا، وما سيفعله أبي معي، إلا أن تلك الأسئلة في عقلي كانت أقوى وأهم...

هل سيعود يومًا؟.. هل سيقدر على مواجهة أسرته وشقيقه الوحيد من أجلي أنا؟.. أم سيكتفي بما حدث ليكون مجرد ذكرى يضحك عليها يومًا ما مع شقيقه؟

لا أعرف الإجابة حقًّا.. أو بالأحرى أعرف، ولكني لن أقدر على مصارحة نفسي بها...

لن أقدر أبدًا.

وقــت الرحــيل

(خاطرة)

لم أدرك أن هذا اليوم قد يأتي.. لم أدرك أن في حياتي بقية لأشهد تلك اللحظة.. ولكنها أتت.. ويا ليتها تأخرت ولو لثوان حتى.. ثوان قليلة كان يمكن فيها أن أصحح أخطائي.. أطلب المغفرة من خالقي.. أرجو السماح ممن ظلمت.. ولكن هيهات.. لن يرحمني أحد.. لن يعفو أي إنسان عني حتى ولو كان طفلًا صغيرًا.. لم يتبقَّ لدي سواك يا الله فاعف عني.. لقد ألهتني الحياة ونسيت أني سآتيك يومًا ليكون حسابي مريرًا.. قابلت رؤساء وملوك العالم ونسيت لقاء ملك الملوك.. وسعتني قصور زعماء الدنيا وضاق علي الوقوف بين يديك.. ولكني لا ألوم أحدًا سواي.. فقد مددت يدي وصافحت أعدائك.. أمسكت قلمي وخططت بيدي ما يغضبك.. قاتلت وقتلت.. بغيت وأذللت.. وعدت وأخلفت.. ولكني في النهاية هنا.. جسدًا باليًا ملقًى على فراشه، لا يملك لنفسه ولا لغيره حولًا أو قوة.

أغمض عيني في قوة لأمنع دموعي من الانهمار.. أزيح كل أفكاري لأتشبث بآخر قشة ستنقذني قبل أن أرحل عن هذا العالم.. مغفرتك يا إلهي.. أرجو مغفرتك حتى وأنا أعلم أنها بعيدة المنال.. أرجو مغفرتك ولا يعينني على طلبها سوى يقيني بأن رحمتك قد سبقت غضبك.. وأن عفوك شمل السماوات والأرض.. أقنع نفسي بأني سأنالها...

حتمًا سأنالها...

بإذنك وحدك سأنالها...

وحين يهدأ قلبي المضطرب أعلم أن رحلتي قد أوشكت على النهاية.. وروحي تستعد للانتقال من دنيا البشر إلى حضرة خالق

البشر.. أبدأ في الانفصال رويدًا رويدًا عن جسدي وأسمو على الموجودين بالحجرة.. أسمو على مستشاري الذي يقف بجوار الفراش ويقول لي في أسف زائف ووسط دموعه الكاذبة:

- ليتني كنت مكانك يا سيدي الرئيس.. ليتني كنت مكانك.

أسمو على زوجتي التي تقف متطلعة إليَّ بوجه بارد كالجلمود، وهي تعد الثواني على رحيلي لتهرع إلى ميعادها.. أسمو على أولادي ومساعديني وكل من حولي في الحجرة.. لم أعد أرى شيئًا في الحجرة سواه...

ملك الموت...

واقفًا أمام فراشي في ثبات كالطود، وابتسامة شفاهه لا تحمل سوى البغض والتشفي لي ولكل من على شاكلتي، فأقول له في أعماقي:

- صبرًا أيها الغريب.. أراك جئت لا تبغي سوى استرداد روحي لتعيدها إلى بارئها.. ولكني لا أناشدك أن ترحل.. بل أناشدك فقط أن تتمهل حتى ينهي العجوز الواهن ما تخطه يداه من كلمات.. كلمات باقية وأخيرة في رحلة حياة رئيس مهزوم.. كلمات أخطها وقلبي المريض يخبرني أنه بدأ في إبطال محركاته الواحد تلو الآخر.. كلمات أخطها وأنا أسمع الأذان عاليًا مهيبًا من المسجد القريب، فيخبرني عقلي ساخرًا أن جسدي الذي لم يلبِّ نداء واحدًا لرب العالمين، لن تقوم له قائمة الآن.. كلمات أخطها فيأبى قلمي أن يواصل ويسقط من بين يدي صريعًا على الأرض.. حينها أرفع عيني إلى من حولي، بينما تتسرب روحي من بين ضلوعي كالقطرات، وأقولها بلاصوت.. بلا نبض:

- سامحوني جميعًا، ولكنه قد حان...

وقت الرحيل.

بصـعوبة شـدبدة شـقت عربـة الجـر الصـغيرة طريقهـا وسـط الأوحال والمطبات والطريق غير الممهد فـي تلك القريـة الفقيرة مـن قـرى الريـف، محاولـة الوصـول مبكـرًا إلـى تلـك المستشـفى المتهالكـة التـي بـدت مـن بعيـد كمبنـى مظلـم مخيـف الشـكل، لا مستشفى يفترض بها أن تبعث شعورًا بالاطمئنان أو الارتياح.

وعنـد البوابـة الخـارجيـة توقفت العربـة لينـزل مـن علـى متنهـا (رزق) كبير الممرضين الكهل، بجسده الضـئيل وقامتـه القصـيرة وملامحه التي لا تجعلك ترتاح لرؤيتها أبدًا، إلى جانب عينيه التي ملأها خبث شديد لم ينجح لونهما الأخضر الصافي في إخفائه..

وما أن استقرت قدماه علـى الأرض حتـى تحـرك فـي خطـوات سريعة متجهًا إلى باب المستشفى الداخلي دون حتى أن يلقي تحية واحدة علـى جـاره الـذي أوصـله إلـى هنـا، والـذي أخذ يتطلـع إلـى ظهره في مقت شديد وهو جـالس علـى عربتـه الصـغيرة متحسـرًا مـن تلـك الرحلـة الظالمـة التـي يضـطر لقطعهـا مـن منزلـه إلـى المستشـفى يوميًّـا فقـط كـي يوصـل (رزق).. غيـر قـادر علـى الرفض أو حتى الاعتراض وإلا فسيكون عليه تحمل عواقب هذا الرفض حين يحدث يومًا ويمرض ولد من أولاده أو يمرض هو نفسـه ويلجـأ إلـى المستشـفى الوحيـدة فـي قريتـه والمسـئول عنهـا المدير ظاهريًّا فقط لكن يحكمهـا (رزق) فـي البـاطن بقبضـة من حديد.. حينها سيكون عليه أن يدفع ثمن رفضه هذا حتمًا.

جالت تلك الأفكار في رأسه في اللحظة التي عبر فيها (رزق) باب المستشفى الداخلي، فقط لتصـطدم قدمـه بتلك التكسيرات فـي أرضـية المـدخل قبـل أن يفقـد توازنـه ويسـقط أرضًـا بشـكل أثـار ضـحك جميـع الموجـودين فـي اسـتقبال المستشـفى ورسـم بسـمة

صافية على شفتي الجار وهو ينظر إلى السماء نظرة امتنان صامتة قبل أن يهز لجام حماره ويتخذ طريقه متجهًا إلى أرضه وهو يدندن بأغنية ما في استمتاع.

أما (رزق) فقد هب سريعًا من سقطته وهو يصرخ ثائرًا:

- أيها الحمقى الكسالى.. ألم يكلف أحدكم خاطره ويصلح هذا الشق بعد؟

حاول أحد الممرضين سحبه بعيدًا لتهدئته إلا أنه نزع ذراعه من بين يديه وهو يعيد الصراخ:

- سأريكم أيها الملاعين.. سأتحدث مع المدير بنفسي ليخصم ثمن التصليح من مرتباتكم.. يجب أن تتعلموا أني لا أقبل الإهمال و...

قاطعه الممرض في تلك اللحظة وهو يقول بصرامة:

- يكفي هذا يا عم (رزق).

ثم خفض صوته وهو يتابع:

- لا تنس أن المدير هو من كلفك بإيجاد من يصلح الأرض منذ شهر وأنت لم تفعل هذا.

عقد (رزق) حاجبيه في ضيق ممزوج بالدهشة وقد بدأ يتذكر، بينما يكمل الممرض ضاغطًا على كلماته:

- يبدو أنك نسيت أن المال المخصص للتصليح أنفقته أنت على علاج ابنك طوال إقامته هنا منذ ذلك الحادث، ولم يتحدث أحدنا أو ينطق بحرف رغم أن هذه سرقة وإهدار للمال العام كما يقولون.. ولولا أن المدير يثق بك ثقة عمياء ويترك لك المسئولية كاملة لكنت فصلت من عملك حينها.

ألجمته الجملة تمامًا فلم يقدر على النطق.. كل ما فعله أن أشاح بوجهه بعيدًا وهو يغمغم بصوت مبحوح:

- حسنًا.. حسنًا.. سأتصرف أنا قبل أن يشعر المدير بشيء.

ثم عاد ينظر إلى الممرض من جديد وهو يسأله في حزن تسلل إلى صوته:

- ما أخبار (علي)؟

قلب الممرض كفيه في حيرة قائلًا:

- ما زال كما هو.. رغم أننا نظفنا الجروح التي أصابته في الحادث وعالجناها إلا أنه ما زال فاقد الوعي تمامًا وتلك الحمى الغريبة ما زالت تسيطر عليه.

سأله (رزق) مجددًا:

- وماذا عن دمه؟.. أما زالت نسبته منخفضة كما هي؟

أومأ الممرض برأسه إيجابًا وهو يجيب:

- بلى.. رغم كل أكياس الدم التي نقلناها له إلا أن هذا لم يحدث فارقًا يذكر.. ينبغي أن تنقله القاهرة يا عم (رزق) وإلا قد يموت في أيدينا.

قالها وهو يمط شفتيه في أسف قبل أن يستأذن منه ليرى عمله، تاركًا إياه يطرق بوجهه أرضًا في حزن بالغ وهو يسمع للمرة العاشرة ما كان يتجنبه طوال الشهر الماضي.. أن ينتقل إلى القاهرة ليدور في الساقية بحثًا عن علاج لابنه.. والأدهى أنه لا يمتلك المال الكافي للسفر والاستقرار وحده هناك، فما بالك بعلاج الصبي أيضًا...

ولكن ما زال هناك أمل بعد.. فالوضع سيتغير اليوم مع الزيارة المرتقبة من ذلك الطبيب القاهري الشهير الذي أرسلته وزارة الصحة خصيصًا ليرى المستشفى ويتابع الأحوال بضعة أيام محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه ومداواة الخلل الذي يصيب المستشفى بكل ما فيه ومن فيه.. وبالطبع إذا عرف أن ابن أحد العاملين بالمستشفى موجود هنا للعلاج، وأن مرضه ليس شيئًا

بسيطًا فسيكون أول ما يفعله أن يراه بنفسه ويكتشف ما أصابه بالضبط.. ثم إنه ليس عاملًا عاديًّا، إنه كبير الممرضين نفسه.

هنا بدأ الأمل يتسلل إلى قلب (رزق) وخف قلقه بعض الشيء فقرر أن يخرج من أفكاره السوداء تلك ويتجه إلى حجرة ابنه ليطمئن عليه قبل أن يزاول عمله اليومي.. وكاد أن يتحرك بالفعل لولا أن وجد صوتًا يناديه من الخلف باسمه.. وحين استدار وجده (خليل) الموظف في بنك الدم، حينها تنهللت أساريره أكثر وهو يهتف:

- (خليل) يا صديقي.. كيف حالك؟

شد (خليل) على يده مجيبًا بابتسامة عريضة:

- الحمد لله.. كيف حالك أنت وحال المستشفى في عهدك؟

ابتسم (رزق) ابتسامة صفراء وهو يقول:

- في أفضل حال يا رجل.. أنا أحكمها بقبضة من حديد وكل شيء يسير كالسيف.. آه لو كنت متعلمًا كفاية لكنت أنا مدير المستشفى وليس ذلك الأبله بالأعلى.. ولكنه النصيب كما تعلم يا صديقي.

رمق (خليل) أولئك الجالسين في حجرة الاستقبال من مرضى أو عاملين بالمستشفى قبل أن يجذب (رزق) من ذراعه بعيدًا إلى مكان هادئ قائلًا:

- دعنا الآن من أحلام اليقظة تلك وأخبرني.. ما الأخبار هذا الشهر.. هل تبرع الشاب بالدم كعادته؟

أجابه (رزق) في سرعة:

- بالطبع.. إنه لم يفوت مرة واحدة طوال خمسة شهور سابقة.. في كل مرة يصل قبلنا جميعًا ليتبرع بالحصة الثابتة من دمه.

ثم تلفت من حوله ليطمئن إلى خلو المكان قبل أن يكمل بصوت هامس:

- جاءني بالأمس وتبرع بدمه ثم رحل في صمت كالعادة.. وبالطبع لم أسجل هذا التبرع في أوراقنا، انتظرت أن أعرف هل ستأخذ كيس الدم كعادتك أم هذا الشهر لا تحتاجه؟

هتف (خليل) بصوت مكتوم:

- لا أحتاجه؟.. أأنت مجنون؟ إن فصيلة دماء هذا الفتى (O-) إنها فصيلة نادرة وبنوك الدم الخاصة والمستشفيات الاستثمارية تدفع ثروة من أجل كيس واحد منه.

ما إن نطق هذا حتى شحب وجهه وقد أدرك أنه وقع في الفخ بتلك الكلمات.. وكما توقع تغير وجه (رزق) وبدت الشراسة على وجهه وهو يقول في جشع:

- ثروة؟.. وتلقي لي ببضعة ملاليم كل شهر؟.. أيها الانتهازي اللعين.. أنت تعلم حاجتي للمال لعلاج (علي) ورغم هذا تبخل أن أقاسمك النقود؟

لوح (خليل) بإصبعه في وجهه صائحًا:

- أولًا هي ليست بضعة قروش يا (رزق)، أنت تأخذ ما يكفيك وأكثر.. يكفي أني أعفيك من البحث عن مشترٍ للدم، وأعفيك أيضًا من مخاطر تلك العملية، فلو علمت الشرطة بما أفعله سأسجن حتمًا وأطرد من عملي.. كل هذا أتحمله وحدي لذا أستحق ما يعوضني عنه.. إذا أردت نقودًا كثيرة فابحث أنت في القاهرة عن مشترٍ للدم دون أن تتعرض للنصب ودون أن تشعر بك الشرطة.. هيا.. أنا لن أمنعك.

تطلع إليه (رزق) طويلًا، وقد ألجمته كلمات الرجل ووجد نفسه في حيرة شديدة بين جشعه واحتياجه للمال، وبين ابنه الذي

لا يملك غيره ولا يمكن أن يتركه وحده هنا بدون رعاية.. مستحيل بالطبع.

وعلى مضض تحامل على نفسه أن يبتسم في تزلف وهو يقول:

- أعانك الله يا رجل.. والله لولا مرض ابني ما كنت نظرت إلى نصيبك أبدًا، ولكن أنت تعلم الظروف.. على أيه حال بارك الله في رزقك وبارك في رزقي أيضًا، إنه يكفيني كما قلت.. والآن هيا لأعطيك الكيس قبل أن يصل أمين بنك الدم.

قالها ثم تحرك ناحية البنك بخطوات سريعة ومن ورائه يتبعه (خليل).. وما إن وصلا حتى أخرج (رزق) مفتاحًا من جيبه ليفتح الباب في هدوء حذر ثم يدلف إلى الداخل.. ومن أحد جوانب الحجرة حمل صندوقًا خاصًّا صغير الحجم، قبل أن يفتح الثلاجة ليخرج من مكان خفي فيها كيس الدم ليضعه في الصندوق الذي امتلأ نصفه بمكعبات الثلج.. وبمجرد أن أحكم (رزق) غلق الصندوق قال لـ(خليل):

- الجميع هنا يهابني ما عدا ذلك الرجل المسئول عن بنك الدم هنا.. لولا أنك قد جئت مبكرًا لما استطعت إعطاءك الكيس أبدًا.

سأله (رزق) في اهتمام:

- حقًّا؟.. ربما كان يفعل هذا فقط كي يجبرك أن تعطيه مالًا.

أجابه (رزق) بسرعة:

- لقد كدت أقع في هذا الفخ فعلًا، لولا أن فعلها قبلي أحد الممرضين منذ فترة وحاول رشوته، فتسبب في طرده من المكان بأكمله.

مط (خليل) شفتيه في استغراب دون أن يعلق بينما أطلق (رزق) تنهيدة قوية من أعماقه قبل أن يقول:

- حسنًا إذن.. بما أنك حصلت على مبتغاك فلا داعي لتضييع الوقت في التسامر.. ارحل في أسرع وقت ممكن، فأنا لست مرتاحًا اليوم وأشعر بمصيبة في الطريق.. مفهوم؟

لكزه (خليل) في ذراعه قائلًا بضحكة سمجة:

- يا أخي فأل الله ولا فألك.. استبشر بالخير تجده كما قال الرسول (صلى الله....).

قاطعه (رزق) في نفاد صبر:

-(خليل).. أنت آخر إنسان على الأرض يتحدث في الدين فدعنا من تلك الترهات أرجوك.. فقط أعطني نقودي وارحل.. هيا.

أخرج (خليل) النقود من جيبه وهو يغمغم بكلمات غاضبة غير مفهومة ثم أعطاها لـ(رزق) الذي عدها سريعا قبل أن يقول بلهجة آمرة:

- لا داعي للتسكع في القرية كما تفعل كل مرة.. غادر المستشفى إلى موقف سيارات الأجرة على الفور ومنها إلى القاهرة.. أسمعت؟

أومأ (خليل) برأسه مؤمِّنًا قبل أن يقول:

- حسنًا.. سأزور عائلتي فقط ثم أرحل سريعًا.

رمقه (رزق) بنظرة نارية وفتح فمه لينطق بشيء لولا أن أسرع (خليل) قائلا:

- أنت تعلم مرض الحاجة.. سأزورها فقط وأطمئن عليها ثم أرحل فورًا.. أعدك.

ودون كلمة إضافية حمل صندوقه وغادر بنك الدم والمستشفى بأكلمه، ومن ورائه تتبعه نظرات (رزق) القلقة حتى غاب عن عينيه تمامًا.. كان التوتر ينهش في أعماقه، وهو يشعر فعلًا بشيء غامض لا يدري كنهه بالضبط، ولكنه يحكم قبضته على قلبه ويجعله ينقبض من الخوف.

وطوال اليوم كانت تلك المشاعر هي المسيطرة على الممرض الكهل.. وزاد منها رؤيته لطفله في حجرته وتلك الحمى تسيطر عليه دون أن تنجح أي محاولة منهم في القضاء عليها.. ولكن مع مرور الوقت وانهماكه في عمله اليومي بدأ ينسى كل هذا تدريجيًّا وينغمس في العمل أكثر متناسيًا كل ما يدور من حوله وما يشعر به، ولكن حين دقت الساعة الحادية عشر جاءه ذلك الممرض قائلًا في حماس:

- لقد وصل دكتور (صلاح) يا عم (رزق).

عقد الرجل حاجبيه مستغربًا وأطلت من عينيه نظرة تساؤل فتابع الفتى مفسرًا:

- إنه ذلك الطبيب الشهير الذي قالوا إنه سيأتي لمتابعة المستشفى.

هب (رزق) من مجلسه وهو يهتف:

- وصل؟.. متى؟.. وأين هو؟

هز الرجل كتفيه مجيبًا:

- لا أحد يعلم.. قالت (سعاد) إنه وصل منذ فترة قصيرة وسأل عن المدير فأرشدته لحجرته ونسيت الأمر.. لم يصل بتشريفة خاصة كما كنا نظن فلم تعتقد أنه هو.

قالها ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة سمجة وهو يستطرد:

- لكن أين هو الآن.. فلن أخبرك إلا حين آخذ البشارة منك أولا.

تعلق به (رزق) قائلًا في لهفة:

- بشارة؟.. لم؟.. ما الذي حدث؟

عاد الرجل ليهز كتفيه دون أن يجيب مكتفيًا بنفس الابتسامة اللزجة.. فأخرج (رزق) عملة نقدية من جيبه ودسها في يده بسرعة وهو يسأله من جديد:

- والآن ماذا حدث؟.. أخبرني.

أجابه الممرض في سرعة:

- لقد انتبهنا لوصول الطبيب حين بدأ جولته مع المدير في عنابر المستشفى.. وكدت آتي لأخبرك أولًا، لولا أني سمعت المدير يحدثه عن حالة (علي)، وأنه ابن واحد من المسئولين عن المستشفى بالكامل والذين يتحملون عبئها فوق أكتافهم.. فقال الطبيب إنه يرغب في رؤيته.. لهذا جئت لأخبرك.

تهللت أسارير (رزق) وأشرق وجهه بشدة وهو يغادر مكانه ليهرع إلى العنبر الذي يرقد فيه ابنه، وما إن وصل حتى وجد تجمعًا صغيرًا من الأطباء والممرضين حول الرجل وهو يقف بجوار فراش الصبي واضعًا السماعة على صدره محاولًا التقاط أصوات أنفاسه المتلاحقة ليكشف ما أصابه بالضبط.

كان الكل ينظر إليه في انبهار وكأنه قادم من كوكب آخر.. حتى (رزق) أخذ يتطلع إليه بنفس النظرة، متفرسًا في ملامحه الهادئة ونظارته الطبية الرقيقة، وشعره الأسود أشيب الفودين، الذي أضفى عليه وقارًا فوق وقاره.. إن لم يكن هذا طبيبًا فمن سيكون إذن؟.. هؤلاء البهائم الذين يعمل معهم؟.. لا وقت لهذا الآن، فلنر ماذا سيسفر عنه الكشف وماذا قد يقول هذا العبقري الكهل.

وكأن الصوت يأتي من أعماق بئر سحيقة قال الرجل في برود صارم:

- من المسئول عن علاج هذا الفتى؟

تلفت الجميع من حولهم باحثين عن طبيب الامتياز المسئول عن حالة الصغير فلم يجدوه.. حينها تبرع أحدهم أن يهرع لإيجاده فورًا.. وما إن غادر الحجرة حتى أخرج الطبيب الكهل قلمه من جيبه وخط شيئًا على ورقة صغيرة قبل أن يعطيها لأحد الممرضين بجواره قائلًا:

- أسرع إلى بنك الدم وأعط تلك الورقة للمسئول عنه حالًا.. هيا.

هرع الرجل بدوره مغادرًا الحجرة لينفذ الأمر دون كلمة إضافية.. كان الجميع يتصرف وكأنه مدير المدرسة الذي دخل الفصل فجأة ووجد فيه إهمالًا ما، أو قرر إعطاءهم امتحانًا مفاجئًا ليختبرهم به، ولكن في تلك الحالة كان رزقهم ورزق أولادهم يتوقف على النجاح في هذا الامتحان.. لذا لم يستغرب أحد حين وجدوا الممرض الأول قد عاد وبصحبته الطبيب الشاب الذي امتقع وجهه بشدة وهو لا يفهم ماذا يحدث بالضبط.. لم يستغرب أحد أن الطبيب الذي لا يعرف أي عامل في المستشفى كيف يجده طوال اليوم، يظهر في لحظة واحدة بهذا الشكل.

وقف الشاب أمام الجميع متطلعًا إلى الطبيب الكهل وهو يرتجف كورقة، وبنفس الصوت العميق الرخيم سأله الكهل:

- هذه الحالة هي مسئوليتك أنت.. أليس كذلك؟

أومأ الشاب برأسه مؤمِّنًا على كلامه وهو يزدرد ريقه في صعوبة دون أن يجرؤ على الرد، فبادره الطبيب من جديد وقد بدأ غضب مكبوت يغزو صوته:

- وماذا فعلت بالضبط معها؟.. ما هو تقريرك؟

أجابه الشاب في تلعثم واضح:

- لقد.. لقد جاءنا مصاب في حادث سيارة منذ أقل من شهر.. كانت جروحه متفرقة ولكنها ليست خطرة.. خيطنا الجروح بعد تنظيفها ولكنه كان قد فقد دماء كثيرة فحاولنا تعويضها في أسرع وقت ممكن و...

قاطعه الطبيب في صرامة قاسية:

- عوضت الدماء المفقودة؟.. بماذا؟

ازداد ارتباك الشاب وفتح فمه ليجيب لولا أن سبقه الطبيب قائلًا في غضب واضح:

- عوضت الدماء بفصيلة أخرى أيها المأفون مخاطرًا بحياته.. لهذا أصابته تلك الحمى التي احترتم فيها طويلًا.. ماذا تعلمت أنت في الكلية؟.. أهذا هو القسم الذي أقسمته وشرف المهنة التي تنتسب إليها؟.. أهملت في حالتك وعرضتها للخطر بسبب غبائك وعدم خبرتك.. أنت لا تصلح أن تكون طبيبًا من الأساس.

قال الشاب في سرعة:

- كان لا بد أن أخاطر يا سيدي وأتصرف وفقًا لإمكانياتي.. لا يوجد كيس دماء واحد من فصيلته في المستشفى وكنت أريد تعويض الدماء وإلا كان سيموت حتمًا.. ووالده عم (رزق) مريض بالسكري وممنوع عليه تمامًا التبرع بالدم لأن حالته غير مستقرة.

في تلك اللحظة ظهر الممرض الآخر الذي أعطاه الطبيب تلك الورقة المطوية قبل أن يقول:

- لا يوجد في بنك الدم بأكلمه يا سيدي.

نقل الطبيب الكهل بصره بين الممرض والشاب، قبل أن يستدير إلى المدير الذي تجمد مكانه غير قادر على النطق ليقول له من بين أسنانه:

- مستشفى بهذا الحجم ولا يوجد بها كيس دماء واحد من تلك الفصيلة.. أي جنون هذا؟

جفف المدير عرقه الغزير وهو يقول في ارتباك:

- لقد أرسلنا طلبًا إلى القاهرة منذ فترة ووعدونا بأن يردوا علينا في أسرع وقت ممكن. أنت تعرف أن الدم من فصيلة (O-) نادر ولا بد أن يتأخر الرد قليلًا حتى...

(فصيلة دماء هذا الفتى (O-).. إنها فصيلة نادرة وبنوك الدم الخاصة والمستشفيات الاستثمارية تدفع ثروة من أجل كيس واحد منه...).

(فصيلة دماء هذا الفتى (O-).. إنها فصيلة نادرة...).

(O-)....

دوَّت تلك الكلمات في ذهن (رزق) كالطلقات فانتفض على أثرها في ارتياع وهو يهتف بكل قوته:

- مستحيل.. مستحيل.

استدار إليه الجميع في استغراب لما يقول، بينما هرع هو إلى الطبيب الكهل ليتعلق بذراعه في قوة وهو يهتف:

- سيدي..أنا لدي الكيس.. أعرف كيف أجلبه إليكم حالًا.

ظل الجميع يحدقون إليه بنفس الدهشة دون أن يعلق أحدهم، في حين سأله الطبيب في تعجب:

- كيف؟.. من أين ستأتي بكيس الدم وأنتم المستشفى الوحيدة بالقرية؟

هتف (رزق) بانفعال:

- سأتصرف.. أنا أعرف من أين أحضره.. المهم أن تعدني أن تبقى بجواره حتى أعود.

ثم تهدج صوته وهو يقول من بين دموعه المنهمرة على وجنتيه:

- عدني ألا يموت ولدي بين يديك.. أرجوك يا سيدي.. أرجوك.

ربت الطبيب على كتفه مهدئًا اياه وهو يتمتم:

- سأفعل ما بوسعي يا رجل.. المهم أن تحضر الكيس حالًا.. لا وقت لدينا بالفعل.

مسح (رزق) دموعه بكف يده وهو يهرع خارج الحجرة منطلقا بأقصى سرعة تسمح بها صحته.. خرج من المستشفى بسرعة لينطلق عبر الطريق متجهًا إلى بيت (خليل).. كان أمله

الوحيد أن يجده ما زال في البيت ولم يسافر بعد وإلا سيضيع ابنه حتمًا.. كان يعدو حينًا ويسير مسرعًا حينًا آخر محاولًا الوصول إلى البيت بأسرع وقت ممكن.. وبالفعل لم يستغرق طويلًا حتى وصل إليه فدق الباب بعنف منتظرًا أن يرد أحد.. لحظات وفتح الباب شقيق (خليل) الأصغر الذي قال ما أن رأى (رزق) واقفًا على الباب:

- عمى (رزق).. كيف حالك؟

أجابه الرجل في لهفة:

- الحمد لله.. أين أخوك؟

قال الفتى في حيرة:

- لا أعرف.. لقد عدت من المدرسة فلم أجده.. يبدو أنه قد سافر.

هربت الدماء بغتة من وجه (رزق)، ووجد نفسه يتهاوى أرضًا وهو لا يقدر حتى على التنفس.. بينما هتف الصبي:

- النجدة.. النجدة.

هرعت أمه العجوز من الداخل لترى ما يحدث وما إن رأت (رزق) هكذا حتى أسرعت تعاون الفتى على إيقافه وهي تقول في جزع:

- ما بك يا (رزق)؟.. ماذا حدث؟

شرح لها الفتى الموقف في كلمات سريعة فمطت شفتيها في أسف قائلة وهي تحاول مواساته:

- إنه النصيب يا ولدي.. لو كنت قدمت مبكرًا عشر دقائق فقط لكنت لحقت به و...

رفع (رزق) عينيه إليها وهو يهتف في أمل:

- ماذا؟.. منذ عشر دقائق؟.. يمكنني أن ألحق به إذن.. يمكنني ألحق به.

قالها وهو يفلت من بين أيديهما ويهرع خارج المنزل متجهًا إلى موقف سيارات الأجرة.. ولكن في تلك المرة استغرق طويلًا رغم أن المسافة كانت أقصر من سابقتها، فمع ذلك الألم الرهيب الذي يعتصر قلبه، والدوار الذي يهاجمه بعنف كانت حركته تضعف وتقل سرعة قدميه مع كل خطوة يخطوها.

وأخيرًا وصل إلى موقف السيارات فتوقف عند الطرف يدير بصره هنا وهناك باحثًا عن غايته، وفجأة لمحه جالسًا بجوار النافذة في إحدى السيارات المتراصة التي تنتظر أن يكتمل عددها قبل أن تتحرك.. فأسرع إليه هاتفًا:

- (خليل).. (خليل).

انتبه الرجل على صوته فترجل من السيارة مستغربًا ولكن قبل أن يفتح فمه لينطق بادره (رزق) قائلًا:

- (خليل).. أين كيس الدم؟

أطلت نظرة حذر مرتاب من عيني الرجل جعلت (رزق) يهتف في حنق:

- ولدي يحتاجه أيها الأحمق.. لقد كان في حاجة إليه طوال الوقت وأنا أبيعه لك.. أعطني إياه حالًا.. هيا.

بدأت الناس تنتبه إلى هتاف (رزق) المرتفع فأمسكه (خليل) من ذراعه وسحبه بعيدًا وهو يقول:

- فضحت كل شيء أيها الغبي.. اخفض صوتك قليلًا.

سحب (رزق) ذراعه من بين يده وهو يقول:

- أعطني الكيس ودعني أرحل وسأعطيك المال الذي تريده.. ولكن أرجوك لا وقت لدي الآن للحديث أكثر من هذا.. أرجوك.

رمقه (خليل) بنظرة شك قبل أن يعود إلى السيارة ليسحب صندوق الثلج من مكانه قبل أن يعود قائلًا وهو يمر من جوار (رزق):

- سآتي معك لاتأكد بنفسي.. وكما قلت سآخذ المال الذي أحدده.. مفهوم؟

ازدرد (رزق) ريقه وهو يومئ برأسه موافقًا قبل أن يتخذ طريقه عائدًا إلى المستشفى مع (خليل) دون كلمة أخرى.. كان الطريق متعبًا بحق والشمس حارقة وخطوات (رزق) تزداد ثقلًا مع كل خطوة يخطوها، إلا أنه لم يبالي بكل هذا وهو يحاول السيطرة على ساقيه لتتماسكا قبل أن تتهاوى من فرط الإجهاد.. ومن بعيد لاحت المستشفى أمامه فجد السير أكثر وأكثر وقلبه المريض يكاد يتوقف في أي لحظة.. وعند الباب الخارجي توقف (خليل) وفتح الصندوق الذي يحمله ليخرج منه الكيس المطلوب قائلًا:

- لا أريد أن يراني أحد في المستشفى وأنا أخرج الكيس.. سأنتظرك هنا لآخذ نقودي.

أخذ (رزق) الكيس منه في لهفة ثم عبر بوابة المستشفى الخارجية متحاملًا على نفسه لقطع تلك الأمتار البسيطة الفاصلة...

صعد الدرجات القليلة التي أمامه في تهالك...

عبر الباب الداخلي للمستشفى وقد تشققت شفتاه تمامًا باحثًا عن نقطة مياه تروي ظمأه...

خطى بقدميه إلى الداخل مسرعًا في لهفة و...

وفجأة تعثر...

عيناه المنهكتان لم تريا ذلك الكسر الذي اعتاد أن يتجاوزه مرة ولا ينتبه إليه مرات.. وفي تلك المرة كان قدره ألا ينتبه...

فجأة وجد نفسه يطير إلى الأمام، قبل أن يسقط أرضًا ليشعر بألم لا متناهٍ يمزق عظامه الواهنة.. ومن بين يديه أفلت الكيس ليطير بدوره في الهواء ثم يصطدم بالأرض محدثًا فرقعة مكتومة وتتفجر الدماء منه لتسيل على الأرض...

وببطء شديد وجد (رزق) الدوار يغزو عقله وهو يرى من بين جفونه المتثاقلة بعض الممرضين وهم يهرعون نحوه في لهفة، والبعض الآخر يراهم من بعيد في آخر الممر وهم مسرعين إلى حجرة ابنه (علي) مع ذلك الهتاف المتصاعد من الطبيب الكهل، وفي أعينهم نظرة يعرفها جيدًا...

استسلم يا (رزق).. لقد فات الوقت...

كل هذا حدث أمامه بالتصوير البطيء مثل لقطات السينما، قبل أن يختفي آخر ضوء أمام عينيه وتظلم الدنيا تمامًا و...

ويفقد الوعي.

بمنتهى الملل أغلقت الكتاب الذي أطالعه وأنا أتنهد في حرارة، شاعرًا بسأم رهيب وصل مني مبلغه بعد أن كدت أعتاد عليه في الفترة الأخيرة، ولكني اليوم لم أعد أحتمله لحظة واحدة إضافية.. ألقيت الكتاب بجانبي قبل أن أنهض متجهًا إلى النافذة لأتطلع منها إلى تلك الحديقة الخلابة التي امتدت على مرمى البصر أمامي لدرجة أني لم أصل لنهايتها.. ووجدت نفسي أغلق عيني وأفرد راحتي عن اتساعهما لألتقط نفسًا عميقًا من هواء الصباح البكر شاعرًا به يخترق خلاياي في نعومة ورقة ليجددها بلمسة واحدة.

في تلك اللحظة طرأت في عقلي فكرة كانت تراودني منذ زمن طويل ولكني خشيت أن أنفذها.. ترددت للحظة واحدة ولكن الحماسة التي أشعر بها غلبت ترددي ودفعتني للمخاطرة وليحدث ما يحدث.. عدت إلى حجرتي من جديد لأستلقي على تلك الأريكة الوثيرة متظاهرًا بالاسترخاء الشديد قبل أن ألتقط الكتاب ثانية وأفتحه، ثم قلت بالإنجليزية وبصوت حاولت أن يخرج طبيعيًّا قدر الإمكان :

- (روز) يا عزيزتي.. هل يمكنك أن تعدي لي قدحًا من القهوة، رجاء؟

رمقتني (روز) خادمتي الفلبينية الأصل التي تجلس أمامي منذ الصباح يوميًّا لتحضر لي ما أطلبه، بنظرة طويلة لمحت فيها شيئًا من الريبة، قبل أن تهز رأسها موافقة وتنهض مغادرة الحجرة في صمت لتحضر لي ما طلبته.

انتظرت لحظات إلى أن اطمأننت لمغادرتها بالفعل، ثم نهضت بحركة واحدة من على الأريكة لأغلق الباب بإحكام قبل أن أهرع إلى الهاتف الموضوع على المنضدة بجوار النافذة، لألتقط السماعة وأصابعي على الأزرار و...

كيف سأخاطبه بعد تلك المدة؟.. هل سيقبل أن يكلمني أم سيرفض هذا؟.. هل سيجيب من الأساس؟.. لا.. لا وقت لتلك الأسئلة.. أمامي ثلاث دقائق على الأكثر قبل أن تنتهي (روز) من القهوة وحينها لن يمكنني أن أكلمه.. حسنًا إذن.. سأطلب الرقم وليحدث ما يحدث.. ضربت بأصابعي الرقم وقلبي يخفق في عنف حتى كدت أسمع ضرباته تدوي في قلب الحجرة.. وما أن انتهيت حتى وقفت متسمرًا وأصابعي تقبض على السماعة في توتر شديد.. ماذا سيحدث الآن؟

(جرس)...

ماذا سأقول إن أجاب على الهاتف؟

أعتقد أني حينها سأنسى الكلام حتمًا.. لن أعرف ماذا أقول له.. لن أعاتبه ولن أعنفه لأنه لم يسأل عني كل تلك المدة.. إنه رجل مهم الآن ولديه مسئولياته فلا ينبغي أن أحشر نفسي حشرًا فيها.. ليكن الله معه ويوفقه.

ولكني.. لكني أفتقده حقًّا.. لماذا لم يسأل عني منذ أتيت هنا؟.. لماذا لم يزورني ولو لمرة واحدة؟.. حتى الهاتف لم يستخدمه مرة ليطمئن فيها على أحوالي، ولولا أني أستخدمه لأحدث طبيبي بين الحين والآخر متابعًا معه مرضي لكانوا نزعوه من الحجرة أصلًا و...

ما هذا الذي أقوله الآن؟.. هل سأستهلك الثلاث دقائق في تلك الترهات؟.. ينبغي أن أقول ما أريده فحسب قبل أن يشعروا بي.. وليكن وقات العتاب والشكوى لاحقًا.

نعم.. لقد عرفت الآن ماذا سأقول.. ثلاث دقائق فقط هي كل ما أحتاجه لأقص عليه عليه ذكرى جميلة من صغره أو موقف عابر مر بنا قديمًا لأسمع فيها ضحكته الصافية التي لطالما

ترددت عبر أرجاء القصر وبعثت فيه السعادة الحقيقية رغم كل المشاكل التي كنا نواجهها.

حين يجيب لن أقول من أنا.. هو سيعرف صوتي لحظة أن أتكلم.. سأنطلق وأقول له كل ما سيأتي إلى ذهني بلا ترتيب.. لن أزيد طويلًا.. أحتاج ثلاث دقائق فحسب.

(جرس)...

أتذكر يا ولدي يوم ولادتك جيدًا.. كانت نفس اللحظة التي عرفت فيها أني قد أصبحت ملكًا للبلاد بعد اغتيال الملك الذي سبقني.. عرفت الخبر الأخير فذهلت وكانت فرحتي لا توصف.. ولكن ما طغى عليها هو ذلك الاتصال من المستشفى يخبرني بأن زوجتبيى قد أنجبتك.. هرعت كالمجنون لأراها وأراك.. لم أهتم بهذا الحشد من الناس المتجمع عند حجرتها.. لم أهتم حتى بأخيك الأكبر الذي لم يذق طعمًا للنوم ليوم كامل بسبب هذا الجنون.. لم أبالي بكل هذا.. كنت أريد رؤيتك والاطمئنان عليك.. كنت أريد تعويض تلك الطيبة والرقة السخيفة التي كان عليها شقيقك.. كنت أريدك أن تخرج أنت للوجود مثل أبيك.. قويًّا وصلبًا ولديك دهاء الثعالب ومكرها لتكون السياسي الذي لا يشق له غبار والقيادي الذي أريدك أن تكونه.. لن أكرر غلطتي ثانية وأترك ابني لمربية تهتم به وترعاه في غيابنا أنا وزوجتي كما كنا نفعل مع شقيقك.

اهتممت بك بنفسي رغم كل مشاغلي.. لم أحرمك من شيء تمنيته قط.. كان الجميع لا يصدق حقًّا أن هناك طفلًا قد يعيش في هذا النعيم مثلك.. وكنت أفخر أمامهم أن ابني لا ينبغي أن يحظى بنعيم عادي كأي طفل عادي.. لإنه ليس عاديًّا أبدًا.. إنه ابن الملك.

وكبرت يا صغيري وكان أول يوم في دراستك.. أتذكره؟.. ظللت متشبثًا بيدي لا ترغب في تركي أبدًا.. يومها وأمام عينيك التي اغرورقت بالدموع وتلك النظرة الحزينة التي لم أحتملها،

عدت معك إلى السيارة من جديد وقد قررت شيئًا بدأت في تنفيذه على الفور.. أنشأت مدرسة صغيرة ملحقة بالقصر كنت أنت أول الملتحقين بها.. أو بمعنى أدق كنت أنت الوحيد الملتحق بها.. أحضرت لك مدرسين من كل أنحاء العالم ليعلمونك اللغات والتاريخ والعلوم ويسقونك مبادئ السياسة ومفاتيحها منذ صغرك.. كنت أضغط عليك لتنشأ على نفس الصورة التي تخيلتها في أحلامي لابني الملك الذي يستحق أن يخلف البلاد من بعدي.. كنت أضغط عليك وأنا واثق تمام الثقة أنك لن تخيب ظني وتكون مرهف الحس وطيبًا إلى حد السذاجة كما كان أخوك الأكبر.. ويا ليتك كنت.

(جرس)...

كان أخوك منذ صغرك يعشقك حقًّا.. لم تنجح تصرفاتي معك وتمييزي لك في تغيير هذا.. حتى رحلاتي التي كنت أقضيها في الخارج وأنا أزور معظم بلاد العالم مصطحبك معي فيها، لم يكن يشتكي حينها أيضًا أو يعترض.. ورغم الفارق الضئيل في العمر بينكما إلا أنه كان يعتبر نفسه ليس أخًا أكبر فحسب بل في مكانة أبيك وأمك.. كانت تكفي نظرة واحدة من عينيه لتعرف فيها أنه منزعج من تصرف ما فعلته أنت دون قصد، فتقضي النهار كله محاولًا استرضائه.. ولكن كان هذا ينتهي بمجرد تدخلي بينكما لأقوي موقفك وأدافع عنك حتى ولو كنت مخطئًا فعلًا.. لم أكن أريدك أن تخشى شيئًا أو أحدًا في الدنيا مهما كانت الصلة التي بينكما.. لقد تعلمت في حياتي أنك إذا خفت يومًا فستضعف.. وإذا ضعفت وأنت الملك فستنتهي حتمًا.. ولم أكن لأقدر أن أراك تنتهي أمامي وتتمزق البلاد بين هذا وذاك.. ليس بعد كل ما فعلته لك.

ومـرت السـنون ووصـلتما - أنـت وأخـوك - إلـى المرحلـة الثانوية.. وبينما كنت أنت تريد دراسة العلوم السياسية بالجامعة.. كـان أخـوك يسـتعد لأن يـدرس الطـب ليحقـق حلمـه الـذي لطالمـا تمناه.. أن يفتتح مستشفى خاص به لعلاج النـاس بالمجـان.. يـا لـه من حلم.. ولكن هذا الهدوء والوتيرة الثابتة في حياتنا تبدلا في لحظـة واحـدة.. انقلبـت الأمـور رأسًـا علـى عقـب فجـأة ودون مقدمات ومنحنا القدر صدمة العمر.

في ذلك اليوم استيقظنا جميعًا على خبر وفاة أخيك.. كانت صدمة لي بكل المقاييس.. لم أكن فخورًا بـه، ولكنـي في أعماق قلبي كنت أعشقه حقًّا.. إنـه ابنـي البكر الذي لم أتخيل لحظـة أن أفقده هكذا.. ثرت وانفعلت وقلت أشياء في حق الله لـم يكن يصح أن أقولها، بينما الملايين من الشعب تخرج إلى الطرقات لتشييع جنازة ابني الذي عشقوا ضحكته الصافية وحبه للفقراء والعامة، ووجوده الدائم في أي مشروع خيري يخدم النـاس.. حتـى في لحظات الفرح أو الحزن التي تمر على الشعب كانوا يجدونه فيها بجـوارهم ولـو بظهـوره علـى الشاشـات فقـط ليشـارك النـاس مشاعرهم في تلك اللحظة، فيواسيهم تارة ويهلل معهم تارة أخرى وكأنه واحد منهم.. وحين كان يسأل الناس عني ويفتقدوا وجودي فـي الجنـازة كـان مستشـاري يـردد بـأن دعـوا الرجـل لأحزانـه وليصـبر الله قلـب هـذا الملـك المؤمن العـادل.. الملـك الـذي عـاقر الخمر لأيام بعد تلك الحادثة محاولًا نسيانها بشتى الطرق.. يـا للسخرية!!

أمـا أنـت يـا صـغيري فقبعت في حجرتك لثلاثة أيام كاملة لا تحدث فيها أحدًا ولا تذوق طعمًا للنوم أو تتناول وجبة واحدة.. لم تبك.. وهذا ما أثار حيرتي وشكوكي.. ظننت أنها صدمة قد ألمت بـك وينبغـي لهـا عـلاج نفسـي خـاص.. ولكـن حـين انتهـت الأيـام الثلاث التي اتخذتها حدادًا على روح أخيك، وحين وجدتك تقف

على باب حجرتك في تماسك وصلابة أدركت أنك قد تعافيت وأنك قد تجاوزت المحنة وستعود من جديد كما كنت.. ومرت الأيام وانتهى الحزن رويدًا رويدًا وعدت ثانية إلى دراستك وقد عزمت أن تواصل حلم أخيك بأن تصبح ملكًا عادلًا.. ولكن ليس قبل أن تنهي دراستك وتسعى لتحقق الصفة الأولى والأهم قبل كل شيء.. أن تصبح الملك أولًا.

(جرس)...

حين أنهيت دراستك الجامعية في كبرى جامعات العالم كان لا بد حينها أن أنتقل للمرحلة الأخيرة في خطتي.. تجهيز الشعب لتقبل وجودك في إدارة البلاد معي استعدادًا لتملك مقاليد الحكم كلها في يدك.. ولكنها أبدًا لم تكن خطة سهلة كما كنت تظن دومًا.. فرغم يقيني من إحكام قبضتي على الشعب بكل الصور إلا أني كان لا بد أن أتبع ما تعلمته قديمًا في حياتي: قد تخدع كل الناس بعض الوقت وقد تخدع بعض الناس كل الوقت.. ولكنك أبدًا لن تقدر على خداع كل الناس كل الوقت.. وهذا يا صغيري ما كان يقلقني بشدة عليك.. فشعبي أعرفه جيدًا وأحفظ تقلباته وطباعه.. قد تظنه غبيًّا ساذجًا يهتم فقط بإشباع غرائزه أو إيجاد لقمة العيش، ولكنه متى شعر بالخطر يهدده، ينتفض ثائرًا كالوحش ليطيح بكل شيء وأي شيء حتى يعود مطمئنًا كالسابق.. وأول من كان سيطيح به الشعب هو أنت.

كانت تكفي تلك الصورة في مخيلتي لأقضي الليل بطوله ساهرًا أعد الخطط لدفعك إلى المقدمة وإلى النور بدلًا من الظل.. صنعت لك منصبًا من الخيال في مجلس الكبار الذي يحكم البلاد برئاستي، وجعلتك تقفز فوق أكتاف من هم أكبر منك ثروة ونفوذًا وحنكة لتتقدمهم جميعًا.. كثيرون غاروا منك.. كثيرون كانوا

يخططون يومًا بعد يوم للإطاحة بك ولكني كنت موجودًا لحمايتك دومًا.

كنت أدفع الجميع لتشاركهم في مشروعات قوية ومفيدة تخدم الشعب.. وبرغم أنها كانت مشروعات فاشلة بكل المقاييس المعقولة.. إلا أن اسمها وحده كان يكفي ليثير خيال البسطاء ويجعلهم يسبحون بحمدك.. ورويدًا رويدًا صار اسمك يتردد على كل الألسن بأنك الاقتصادي الماهر والسياسي المحنك الذي لا يشق له غبار.. صرت تلقي بالتصريحات يمينًا ويسارًا وفي كل المناسبات.. أصبحت تعد الشعب - باسم الملك وباسم مجلس الكبار - بمشروعات وهمية وخيالية تدفع عامة الشعب للهتاف باسمك ورفعك على الأعناق.. وكل هذا أثار خيالك ودفع في عروقك الدماء الحارة لتنشط أكثر...

وأكثر...

وأكثر...

وتوطّد صلاتك بكبار رجال المملكة والممالك الأخرى من حولنا.. أصبحت كيانًا قويًّا عاتيًا يكفي أن يذكر اسمه في أي مكان حتى يرتجف قائله خوفًا وفزعًا..حتى زواجك تم بينك وبين واحد من أباطرة الاقتصاد في البلد لتصنع من سلطتك ونقوده مزيجًا واحدًا وسلاحًا لا يملكه غيرك.

ومع مرور الوقت خرجت تلك الشائعة التي تقول أنك الملك القادم للبلاد.. وكعادتنا الأبدية لم ننف الخبر ولم نؤكده أيضًا.. اعتدنا أن نترك الناس لشائعاتهم - التي غالبًا ما تكون حقيقية - لينسجوا قصصًا من خيالهم ويتوسعون فيها ثم يصدقونها بعد كل هذا.. ولكن ذلك الخبر لم يكن شائعة بل كانت حقيقة يعلمها المقربون مني جميعًا.. حقيقة تنتظر الوقت المناسب لتنفيذها.. حقيقة ليس أمامها غير عائق واحد فقط قبل أن تصير واقعًا مفروغًا منه.. وهذا العائق هو...

(جرس)...

أنا.. كنت أنا العائق الذي أقف حائلًا بينك وبين حلمك.. كنت أقول لك مرارًا وتكرارًا أني حين أرحل عن الدنيا فسأترك لك البلاد لتكون بكل أراضيها وأنهارها ملكًا لك وحدك، حينها كنت تتعلق بيدي قائلًا:

- أطال الله عمرك يا أبي.. لن يكون هناك غير ملك واحد هو أنت.

ولكن هذا كان قديمًا.. أما الآن.. وبعد أن وجدتني قد أصبحت حملًا ثقيلًا عليك.. وسأؤخر تحقيق إرادتك لفترة لا يعلمها إلا الله وحده، كان لا بد أن تتخلص مني..ولكني كنت أعلم أن شيطانك ليس بتلك القوة التي تجعله يوسوس لك بقتلي.. وكما علمت لاحقًا.. ظللت لأيام في حجرتك تفكر وتفكر باحثًا عن وسيلة تضرب كل الطيور بحجر واحد.

وأخيرًا وجدتها...

ثم أخبرتني بها كنوع من التقرير ليس إلا.. كنت قد اتخذت قرارك بالمضي قدمًا في هذا الأمر مهما كلفك.. حاولت أن أعترض.. حاولت أن أستجديك.. لكن صوت عقلك الذي طالما عهدته عمليًّا جافًّا وباردًا - كما تعبت كي يكون - هو من أخبرك ألا تستمع لي.. يجب أن أختفي تمامًا من الصورة وأترك المجال لك لتمسك بمقاليد الحكم كلها في يدك.. ولكن لن يتم هذا إلا بعد أن يعلم الشعب - مخدوعًا - بوفاتي وأنك قد أصبحت الملك الجديد للبلاد.. أما أنا فلن يعلم أحد بأني ما زلت حيًّا.. خاصة إذا كنت مدفونًا هنا في هذا المكان الذي أعددته لي خصيصًا...

كانت تلك هي خطتك باختصار.. أو بالأحرى كانت خطة زوجتك...

هذا ما عرفته من خادمتها التي كانت تحبني كأبيها، والتي سمعت بالصدفة حديثكما فأخبرتني به...

ولكن بعد فوات الأوان...
بعد أن انتشر الخبر في كل أرجاء البلاد ينعي ملكها الحاكم العادل ويشيد بإنجازاته وقراراته الحاسمة التي طورت بلدنا وجعلته في مصاف الدول الكبرى.. قبل أن يعلن الخبر في النهاية عن توليك منصب الملك الجديد بعد أن كنت الوريث المنتظر للعرش من بعدي...
ولم يستغرق الأمر طويلًا حتى كان كل شيء قد تم تجهيزه وبأعلى قدر من السرية التامة.. وفي الأيام التالية انتهيت من إعداد حقيبتي بكل مستلزماتي وما أحتاج إليه.. قبل أن ينقلني رجالك قسرًا من بيتي إلى الدار الذي أنشأته خصيصًا لي...
الدار الملكي...

لم يكن به غيري...أنشأته خصيصًا لي في مكان مهجور تمامًا عند أطراف المملكة.. وفي نفس المدينة التي افتتحت محطة الكهرباء بها منذ عامين.. تلك المحطة التي كلفت خزينتنا المليارات، قبل أن ينخر الإهمال كالعادة في عظامها فينتهي بها الحال محروقة تمامًا بكل ما فيها ومن فيها.. وكأنك كنت تعاقبني بأن أبقى على مقربة من تلك المحطة لأسمع من نافذتي صراخ العمال والمهندسين وهم يحترقون أحياء في كل ليلة دون أن أقدر على سد أذني مهما حاولت.
أنا أعيش هنا في جحيم حقيقي يا ولدي.. يقتلني اليأس والسأم في كل يوم مائة مرة.. وتتكفل تلك الصرخات الشنيعة التي أسمعها كل ليلة بالقضاء على البقية الباقية من أعصابي لتحطمها تمامًا.. ولكن برغم كل هذا، فيكفيني أن أسمع صوتك فحسب لتهون علي كل تلك الأمور وتجعلني قادرًا على احتمالها...
أرجوك يا ولدي أن تجيب.. أرجوك.
(ألو.. ألو..).

تجمدت السماعة في يدي.. واحتبست الكلمات في حلقي فلم أقدر على النطق بحرف واحد.. إنه هو.. إنه هو.. يجب أن أتحدث.. لقد انتهت المدة حتمًا وسيأتون في أي لحظة...

وبمنتهى الصعوبة ازدردت ريقي وأنا أفتح فمي لأجيب:

- ألو..

فجأة أمسكت يد غليظة بالسماعة لتنتزعها من يدي بمنتهى العنف.. بينما يحيط بي اثنان من رجال الأمن ضخام الجثة مبعدين إياي عن الهاتف الذي أمسك كبيرهم بسماعته قائلًا عبرها في احترام شديد:

- عفوًا يا جلالة الملك.. إنه خطؤنا نحن.

ارتفع صوت ابني عبر الهاتف لدرجة أني كنت أسمعه بوضوح وهو يهتف:

- أيها الحمقى الأغبياء.. ألم آمركم بالانتباه له؟.. قلت لكم إني لا أريد أن يظهر أي دليل على وجوده.. أنتم مجرد ثيران بلا عقل.

ابتلع الرجل الإهانات المتواصلة قبل أن يقول باحترام أزيد:

- لا تقلق من هذا الأمر يا جلالة الملك.. سنتصرف نحن على أكمل وجه.

قال ابني وهو يزفر زفرة حارة:

- حسنًا.. سأعتبر هذا خطأ غير مقصود.. ولكني لن أقبل به ثانية أبدًا.. مفهوم؟

قالها ثم وضع السماعة لينهي المكالمة تاركًا الرجل يغلق السماعة بهدوء شديد.. قبل أن يلتفت إليَّ بنظرة نارية جمدت الدم في عروقي وهو يقول من بين أسنانه:

- أرأيت ماذا فعلت بنا سخافتك وتصرفاتك الحمقاء؟.. أنا لن أحتمل إهانة أخرى توجه إليَّ بسببك أيها اللعين.

انكمشت في مكاني مترجفًا بشدة، وأنا أراه يمسك بسلك الهاتف ليمزقه بجذبة واحدة من يده وهو يقول في صرامة قاسية:
- حين تريد التحدث مع طبيبك في المرة القدمة ستتحدث عبر هاتفي أنا.. وأمامي.. هل سمعت؟
قالها ثم أشار لرجاله لينصرفوا قبل أن يلقي نظرة أخيرة عليَّ ثم يغادر بدوره مارًّا من جوار (روز) التي دخلت الحجرة لتضع قدح القهوة أمامي وهي تقول بابتسامة فهمت مغزاها جيدًا:
- في خدمتك دائمًا يا سيدي.

تطلعت إليها في رعب قبل أن أطرق بوجهي أرضًا محاولًا السيطرة على أنفاسي المتلاحقة.. الآن فقط علمت من أخبرهم، وعلمت أني بخطأ واحد قد أضفت أسوارًا جديدة إلى سجني...
لقد قضيت على آخر أمل لي في الحياة.. ولم يعد لدي الآن سوى انتظار الموت لينهي ما أنا فيه.. ولكن حتى الموت راحة أعلم أني سأنتظرها طويلًا عقابًا لي...
وبعدها...
سيكون القادم أسوأ حتمًا.

- قابلتها ذات يوم فجأة...
- قابلته بدون مقدمات ذات يوم...
- كانت كما هي رقيقة فاتنة...
- كان كما هو ما زال السحر يشع من بين قسماته...
- يا إلهي، بعد كل تلك السنوات أراها؟ والآن؟!
- يا إلهي؟ هل أنظر إليه أم أهرب بعيني بعيدًا؟
- أرى الدبلة في إصبع يدها اليسرى فأدرك أنها تزوجت بعد أن رفضني والدها، ولكن كيف.. كيف لم تنتظرني؟
- لمحت دبلة الزواج في يده، إذن لقد تزوج، مضى في حياته بعد أن رفضه أبي ولم يسع ليتصل بي بعدها، كيف نسيني بهذه السهولة؟
- سأذهب لأكلمها، على الأقل لقد كانت يومًا زميلتي.
- هل أذهب إليه؟ لا لا، سأموت خجلًا إن فعلت هذا، ثم إنه ليس من حقه أن أذهب إليه بعد كل تلك السنوات، ماذا سيقول عني؟
- سأكلمها وليحدث ما يحدث، فلتقل ما تريد أو تفعل ما تريد، سأذهب إليها..
- وما العيب إن كلمته؟ رغم كل شيء لقد كنا أصدقاء يومًا ما، ولعله لم ينتبه إلى، سأذهب إليه...
- (بابا).. قالها ابني فانتبهت أنه ما زال يتعلق بيدي كل تلك المدة وأنا أشرد في حبيبتي من بعيد...
- (ماما).. قالتها ابنتي وهي تجذب يدي في ملل بعد أن طال وقوفي كل تلك الفترة وأنا أنظر إليه في لمحات سريعة خجلى...
- شد ابني ذراعي مشيرًا إلى تلك العربة الصغيرة في محل اللعب هذا الذي نقف فيه ليستجديني أن أشتريها له...

- أشارت ابنتي للعروسة التي التقطتها من على الرف ناظرة لي في وداعة لتجعلني أشتريها لها...
- أشرت لابني أن يصبر قليلًا وأنا أعده بأن أشتريها له، ثم استدرت لها من جديد وأنا أتابعها بنظري تحدث ابنتها...
- طبعت قبلة سريعة على جبين ابنتي وأنا أرجوها أن تتمهل قليلًا مقابل أن أشتري لها المحل كله...
- لم أنتبه إلى ابنتها كل تلك المدة، إنها تشبهها تمامًا، نفس الملامح والرقة والعينين اللتين أسرتني يومًا...
- لم أنتبه أنه كان يمسك بيد ابنه كل تلك المدة، يا إلهي إنه يشبهه تمامًا، نفس الرجولة والملامح والنظرة التي كنت أهيم بها قديمًا...
- لقد كدت أقدم على فعلة حمقاء إن كنت ذهبت إليها، إنها زوجة وأم الآن، ولا بد أنها سعيدة في بيتها بعكسي بعد أن ماتت زوجتي منذ سنة...
- خيرًا فعلت أني انتظرت قليلًا، لا يمكن أن أكلمه الآن، إنه ليس زوجًا فحسب، بل وأبًا أيضًا ولا بد أنه يعشق طفله وزوجته بعكسي بعد أن انفصلت أنا وزوجي منذ شهور...
- خسارة حقًّا، حبيبتى التي لم أتمنَّ غيرها أصبحت ملكًا لأحد غيري، يا ليتها كانت ما تزال تنتظرني أو حبي باقيًا في قلبها، لهرعت إليها وطلبتها للزواج حالًا.
- للأسف لم يعد لي مكان في قلبه، لو كان فقط ما زال يريدني لكنت ملكًا له ولكني لن أقبل أن أكون في حياته الزوجة الثانية أبدًا، إنه قدري أن أخسر الزوج ثم الحبيب الذي لم أنساه قط...
- لنذهب يا ولدي، (مفيش نصيب)...
- هيا يا صغيرتي، (فعلًا.. مفيش نصيب)...

قصــة لا تنتهــي

بسـم الله الـرحمن الـرحيم.. سـيداتي سـادتي.. أهـلًا وسـهلًا بحضـراتكم فـي الليلـة المرتقبـة بـين الفـريقين.. بـل الأسـدين.. البطلين.. والشقيقين.. الفريق المصري والفريق الجزائري.

من استاد الحرية في دولة (...) ننقل لكم أولى مباريات بطولة اتحاد العرب الدولي.. ذلك الاتحاد الذي تم تأسيسه من عام واحد، وتنطلق البطولة احتفالًا بذكرى التأسيس.. وقعت القرعة المنتخب المصـري مـع المنتخـب الجزائـري وانتـوا عـارفين كـم القـرف.. إحم.. كم المشاكسات والتنافس بين الفريقين.. ولكن اليوم المبـاراة غير.. اليوم البطولـة غير.. لا تقل لـي أهلـي ولا زمالك.. لا تقل لي شبيبة ولا ترجِّي.. اليوم المبارة ستكون ولا أروع بعد ما أنهوا الخلافات بين الفريقين في جلسات الاتحاد التي عقدت علـى مـدار عام كامل.. اليوم هنشوف مباراة بين شقيقين لا يحمل كل منهمـا للآخـر سـوى كـل ود وحـب واحتـرام.. دعونـا أولًا نبـدأ بتشـكيلة الفريقين و...

الظاهر أن الفريقين حينزلـوا أرض الملعب.. عفوًا كـان البث متـأخرًا قلـيلًا.. ولكـن مـش مهـم.. سنسـتعرض المبـاراة وهـاقول لحضراتكم التشكيلة واحنا بنلعب...

نزل الفريقين أرض الملعب.. وقفة صامتة لدقيقة، حدادًا علـى أرواح اللي ماتوا من مشجعي الفريقين في المباريات الأخيرة.. يا سلام.. هو ده الود وهو ده الحب.. خلـي العـالم يبصـوا لينـا الآن.. فليقفوا تحية وانتباه فهم في حضرة الكبيرين الأبطال.

سلم أعضاء الفريقين علـى بعضـهم البعض وحضـن كل منهم التاني.. رائع يا رجالة.. هي دي الروح ولا بلاش...

بـدأت المبـاراة بكـرة مـن اللاعـب رقـم (١٥) فـي الفريـق المصري لتذهب إلى الاعب رقم (٢٠) و.. إلخ إلخ.

الدقيقة (٥).. أووووه.. قبضة عنيفة في وجه المدافع المصري الدولي سددها إليه اللاعب رقم (٤) في الفريق الجزائري.. ربنا يستر.. فيه مشاكل؟.. ممتاز يا رجالة.. اللاعب المصري ينهض ليشد على يد اللاعب الجزائرى في قوة.. في حياتي ما شوفتش ده قبل كده.

الدقيقة (١١).. لا لا لا.. يا الله.. اقتحام عنيف من اللاعب رقم (١٣) في الفريق المصري للاعب رقم (٦) في الفريق الجزائري.. يا سلام.. الحكم لا يشهر بطاقة أصلاً.. يبدو يا شباب أنه نسي الكروت في الشورت الآخر.. ينهض اللاعب ويكمل المباراة.. واستؤنف اللعب من جديد...

الدقيقة (٢٥).. جوه الجووووووول.. يا سلام عليك يا حبيب والديك.. تسلم رجلك يا فنان.. ارجع ومتعنا.. ارجع ودلعنا.. ارجع وورينا يا مخرج.. جول ولا أروع في الزاوية اليسرى للحارس الجزائري.. محدش يقدر يوقفها.. الله عليك يا بني.

الدقيقة(٣٦).. يستلم اللاعب المصري الكرة ويديها لزميله (وان تو) و.. لا لا لا.. إيه اللعب الخشن ده؟.. التوى كاحل الفتى بعد تدخل اللاعب الجزائري عليه.. أين تدخلك يا حكم؟.. الحكم يجري ليرى حامل الراية والظاهر بيقوله حاجة.. يعود للملعب ويشهر البطاقة الصفرا للاعب المصري لأنه قام بتمثيلية على الحكم.. قرار سليم مائة في المائة.. هنستكمل اللعب من جديد بس بعد ما يدخل المسعفين ليحملوا الفتى اللي بيبكي في ألم بره الملعب خالص.. بطل تمثيل يا بني ورجع رجلك لوضعها الطبيعي بعد ما التوت للجنب بشكل مخيف.. الظاهر إنها اتكسرت.. بس ده طبعًا مش مبرر أنه يمثل على الحكم.. هو فاكرنا هنصدق كده بسهولة ولا إيه؟

تووووووت.. يصفر الحكم معلنًا انتهاء الشوط الأول بتقدم الفريق المصرى واحد للاشيء.. استراحة قصيرة وبعدها نعود لنكمل باذن الله الشوط الثاني من المباراة، فابقوا معنا...

أعزائي المشاهدين أهلًا وسهلًا بحضراتكم من جديد في الشوط الثاني من المباراة المهمة بين الفريقين الحبيبين الفريق المصري.. والفريق الجزائري...

يصفر الحكم فينقل اللاعب المصري كرته إلى زميله.. واحد فيكم هيسألني دلوقتي هل بدأ الفريق المصري الشوطين والكرة معاه؟.. أسئلتك غريبة يا أخي والله.. دول شقيقين.. المصري بدأ.. الجزائري بدأ.. في بيتها يا أخي.. خلونا نتابع المبارة قبل ما أفقد أعصابي عليك.

الدقيقة (٥٨).. وهاااداااااااااف.. هدف هدف هدف.. إيه الجمال ده؟.. إيه الروعة دي يا خضر؟.. جول ولا أروع.. جول ولا أمتع.. جول ولا شوفته عشان كنت بشرب.. جه إزاي ده؟.. عيدهولنا يا مخرج من جديد.. شوف شوف إزاي جه من ورا المدافع وحطها بين إيدين الحارس؟.. لا لا يا جماعة الخضر عادوا للمباراة بقوة...

الدقيقة (٧٦).. ركنية للفريق الجزائري يلعبها اللاعب رقم (١١).. وهوباااااااااا.. يقفز المدافع المصرى ويطلعها بدماغه و.. آآآآه.. دي كانت صرخة اللاعب الجزائري رقم (٩).. الظاهر الدماغ جت فيه هو مش في الكورة.. فيه اعتراض ولا ايه من الجانب الجزائري؟.. الظاهر اللاعب رقم (٨) بيعترض على الحكم.. اللاعب الجزائري بيقوم من على الآرض ويلطشه قلم.. تمام، تمام.. ميصحش اللاعب يعترض على قرارات الحكم حتى ولو ضايقته.. اللاعب الجزائري بيصرخ لسه فيه وبيقوله:

- انت حتفهم أكتر من الحكم يا حمااار؟

قائد يا بني من يومك.. الله عليك...

الدقيقة (٨٩).. اللعب سخن جدًّا.. الكورة تروح من رجل رقم (٥) لرجل رقم (١٦) ومن (١٦) لرجل رقم (٩) و.. جوووووووووول.. يا سلاااام.. بالملليمتر يا حبيبي بالملليمتر.. ده لو كان أعظم حراس المرمى ما كانش حيقدر يوقفها.. اللعيبة بتهني بعض ولاعيبة الجزائر بتحضن اللاعيبة المصريين وبتهنيهم بالجول.. إيه ده إيه ده؟.. اللاعب رقم (١٥) في الفريق الجزائرى بيعيط وبيحضن اللاعب المصري بشدة.. هي دي الروح.. هو ده الحب.. أنا حعيط والله.

توت توت توووت.. يصفر الحكم معلنًا انتهاء المباراة بفوز المنتخب المصري بهدفين للاشيء.. اللعيبة بتحضن بعضهم وبيتبادلوا الشورتات.. يا سلام يا سلام.. المباراة دي لن أنساها في حياتي.

سيداتي آنساتي سادتي.. نقلنا إليكم وقائع المباراة بين الفريقين الشقيقين المصري والجزائري و....

إيه ده؟.. لحظة كدا.. اللاعب المصري بيسجل مع مذيعة أجنبية.. اللاعب الجزائري بياخد منه المايك وبيقوله كانت حتسجل معايا الأول.. إيه اللي بيحصل يا رجالة؟.. اللاعب المصري بيقوله ملكش دعوة دي معايا ولا أنا مش راجل؟.. اللاعب الجزائري بيرد عليه بكلمة مش سامعها للأسف.. إحم إحم.. قبضة في فك اللاعب الجزائري.. شلوت في بطن اللاعب المصري.. اللاعب رقم خمسة بيفتكر اليد اللي أخده في أول المباراة وبيرده للاعب الجزائري.. اللاعب الجزائري رقم (٩) بيفتكر الإصابة بتاعت دماغه وبيردها بالظبط في أنف اللاعب المصري.. الفريقين مسكوا في بعض يا رجالة...

اللاعب المصري المكسور بيدخل الملعب بعد ما يسخن الجماهير ويشترك في الحرب بالعكاز بتاعه.. الجماهير ولعت

النـــار فـــي الاســـتاد يـــا اخوانـــا.. الأمـــن جـــري و.. لا لا.. الحقوناااااااااااااااا...

تشـويش فـي الصـوت يسـتمر لحظـات قبـل أن تظهـر شاشـة سوداء وينقطع الإرسال تمامًا..

(وحتى الآن لم يتم العثور على المعلق الذي اختفـى تمامًـا دون أثر)...

قالتها المذيعة ومن ورائهـا صـورة الخـراب الـذي سـاد الاسـتاد بعـد كـم الزجاجـات الحارقـة التـي ألقتهـا الجمـاهير علـى أرضـية الملعب وآثار الدماء في كل مكان، وتلك الملابس الخاصة بلاعبي الفـريقين سـواء الجـزء العلـوي منهـا أو تلـك التـي تسـتر الجانـب السفلي..

عادت المذيعة لتنظر إلى الشاشة وهي تتمتم في حسرة:

- لا يهـم مـن بـدأ الأمـر.. ولا حتـى كيـف انتهـى.. ولكـن المهم الآن هو سؤال يطرح نفسه وبقوة...

ألن تنتهي تلك القصة يومًا؟.. ألن يعود الفريقين أشقاء كما كانا من قبل رغم كل ما حصل؟

لا أحد سيعلم الإجابـة إلا فـي وقـت محـدد يعرفـه الله عز وجل وحده...

ولكـن حـين تـأتي تلك الإجابـة.. أتمنـى حقًّـا ألا أكـون موجـودة لأعرفها...

كانت معكم (دينا عبد الحليم).. طاب مساؤكم.

لا تخـف يا صغـيري

يقول لي أبي دومًا: (لا تخف يا صغيري).. لا يراعي أبدًا أني ما زلت طفلًا في العاشرة من عمري.. من حقي أن أخاف.. أي طفل في سني يحترم نفسه يجب أن يخاف.. من الوحوش، من الجن، من العفاريت.. أي شيء.. وإلا لن يكون طبيعيًّا أبدًا.. في كل يوم يحضر أبي فيلمًا مرعبًا لنشاهده معًا.. وبرغم أني لا أشاهد معظمه دومًا حين أغمض عيني منذ بدايته، إلا أنه يراقبني في اهتمام منتظرًا لحظة أن تفلت فيها عيني وتنفتح لجزء من الثانية فترى شيئًا يجعلني أثب مترين في الهواء وأنا أصرخ في رعب.. تلك كانت لحظة أبي المفضلة.

يقولون إن أبي يعمل طبيبًا للنفس.. لا أعرف معنى هذا طبعًا، ولكن أكيد أنه يضع سماعته على النفس ليكشف عليها ويعطيها أدوية مثل الطبيب العادي بالضبط.. أنا فخور بأبي فعلًا، ولكن ليس معنى هذا أن يكون له الحق في إرعابي في كل لحظة وكأنه يعاقبني.. أول أمس طلب مني شيئًا لأحضره من المطبخ، وما كدت أدلف إلى الداخل حتى أطلقت صرخة شنيعة وأنا أجري مرتعبًا.. جرت أمي لترى ما يحدث وأخذتني في حضنها غاضبة بينما يضحك أبي باستمتاع وهو يقول:

- هل رأيت الفأر اللعبة الذي وضعته في المطبخ؟.. هاهاها.. يالك من جبان.

كانت أمي تهتف فى انزعاج، وهو ما زال يضحك سعيدًا بهذا المقلب الذي صنعه بي.

وماذا عن الملاهي؟.. أي طفل في العالم تكون متعته في الحياة أن يدخل الملاهي ليلعب بألعابها الممتعة.. لكن أنا دون الجميع تحول يومي إلى كارثة استدعت أن يعطوني حقنة (هادئة) كي أنام حتى الصباح، بعد أن اتفق أبي مع أحد العاملين في بيت

الرعب أن يفعل شيئًا ما عرفته حين دخلت وأنا وحدي في العربة.. لم يكن يخيفني بيت الرعب أبدًا.. وقبل أن تظن أنني شجاع ينبغي أن تعرف أني لم أكن أخاف منه لأني قد تعودت أن أسد أذني وعيني حتى لا أرى أو أسمع شيئًا حتى أخرج منه حيًّا دون أن يقف قلبي، وحين أخرج وأشعر بأضواء الملاهي والهواء من حولي أفتح عيني وكأن شيئًا لم يحدث.. ولكن في تلك المرة خرجت وفتحت عيني في ارتياح و...

ورأيت هذه الغوريلا تجلس بجواري.. كان هذا آخر ما رأيته وشعرت به قبل أن أنفجر ويحدث ما حدث.

ولكني لن أخاف بعد اليوم.. اكتفيت فعلًا من صراخي وجبني السخيفين.. سأريهم أنه يمكنني أن أكون رجلًا كما يريدون.. كنت أردد تلك الكلمات وأنا أروح جيئة وذهابًا من المطبخ حاملًا الكعك والمياة الغازية.. كان اليوم هو عيد ميلادي الحادي عشر.. ومعنى هذا أنه قد حان الوقت.. سأكون رجلًا.. رجلًا من قلبي كما أنا رجلًا من الخارج بالضبط.. وسيرون.

وضعت الأطباق على المائدة.. فلمحت أمي بطرف عيني وهي تتحدث بصوت خفيض في الهاتف.. اقتربت بخطوات حذرة فسمعتها تقول:

- نعم.. نعم.. أفهم.. ولكن أنت متأكد أن هذا ليس خطرًا على الطفل يا (علاء)؟

عرفت أنها تحدث أبي، وفهمت على الفور أنها تتحدث عني أنا فمددت جسدى للأمام لأنصت أكثر وليسامحني الله، حينها انتبهت لظلى فاستدارت في حدة لتقول:

- (وليد).. ماذا تفعل؟

ارتبكت بشدة ولم أعرف ماذا أقول إلا أنها رمقتني بنظرة طويلة وقالت:

- أحضر باقي الأشياء من المطبخ.. هيا.

تحركت في ضيق للمطبخ وقد فقدت الفرصة أن أسمع باقي المكالمة وفي نفس الوقت شعرت بالإحراج أمام ابنة خالتي التي في مثل عمري.. أرجوكم، لا تظنوا شيئًا ولا تبتسموا هكذا، أنا فقط أضع أمامها صورة لي لا أريدها أن تهتز وخاصة أمام كل عائلتنا المجتمعة اليوم.. لا يمكن أن تراني طفلًا يحرجه أهله دومًا بهذا الشكل.. ماذا ستقول عني؟

وحين وضعت آخر طبق على المائدة دق جرس الباب فقالت أمي بصوت راجف:

- افتح الباب يا (وليد).

اتجهت إلى الباب وفتحته و...

وتجمدت مكاني...

تجمدت أمام ذلك الوحش العملاق الذي وقف أمامي وذلك السائل اللزج يسيل من بين شفتيه بشكل مقرف.. كنت أقف محدقًا إليه في رعب غير قادر على الحراك.. ما هذا؟.. ما هذا؟

تقدم مني الوحش وهو يصدر صوتًا (عاااااااه).. فتراجعت إلى الوراء وجسدي يرتجف بالكامل.. كيف سأتصرف؟.. تماسك يا (وليد).. أتلك هي الرجولة التي تريد أن يرونها عليك؟.. تريد (مي) أن تراك هكذا؟.. ماذا ستقول عنك؟.. وماذا سيقول أبوك حين يعرف؟.. سيضحك ويقول حتمًا إنك كالعادة.. جبان.

جبان.. جبان.. جبان..

ترددت الكلمة كثيرًا في ذهني فصرخت بقوة، وهرعت إلى المائدة التي وضعت عليها أدواتنا، وبسرعة وقبل أن ينتبه أحد سحبت تلك السكين الكبيرة وجريت تجاه الوحش وأنا أصرخ بأعلى صوتي كما رأيت في الأفلام بالضبط، وسط ذهول الجميع وشهقاتهم...

وبمنتهى القوة غرست السكين في بطن الوحش فأصدر صوتًا قويًّا متألمًا، ورأيت الدماء تسيل من فمه فتركت السكين وأنا

أتراجع للوراء غير مصدق لما حدث منذ قليل.. لقد فعلتها.. قتلت الوحش.. قتلت الوحش.

أسرع الجميع لرؤية الوحش فتوقعت أن يصفقوا لي في حرارة وتهنيني أمي وتبتسم لي (مي) لأني أنقذتها من الوحش كما أرى في الأفلام.. لكن كل هذا لم يحدث.

جلست أمي بجوار الوحش وهي تصرخ بشدة وتبكي ومن حولها أسرتنا يهدئونها.. ماذا يحدث.. أنا لا أفهم؟.. أحاط أعمامي بالوحش ليعدلوه وقد سكن تمامًا على الأرض ومد أحدهم يده وخلع وجه الوحش بالكامل.. يا له من قوي.. بيد واحدة خلع رأس الوحش؟

ومن تحت الرأس رأيت وجه أبي وهو يحدق للسقف ساكنًا وقد تجمد تمامًا.. يا لهذا الوحش الملعون!!.. لقد تنكر على شكل أبي كي لا أعرف أن أؤذيه ولكني سبقته وقتلته.

لماذا يبكي أولئك الحمقى إذن؟.. ولماذا لا تزال أمي تبكي بحرارة وهي على نفس جلستها؟.. أنا لا أفهم.. أيبكون على الوحش؟.. حسنًا، لا يهم.. سأنتظر أبي أن يصل لأقص عليه ما حدث.. هو الوحيد الذي سيفرح بي حتمًا وسيقدر شجاعتي.. وحتى يأتي سأترك كل هؤلاء المجانين وأدخل حجرتي.. لم أعد أريد عيد ميلاد، فاليوم أشعر بفرحة غير عادية.. ولأتم تلك الفرحة سأدخل لألعب بالألعاب المخيفة التي أحضرها أبي منذ فترة، فأنا الآن لم أعد أخاف منها بعد أن شفيت تمامًا وأصبحت رجلًا.

يقول لي أبي دومًا: (لا تخف يا صغيري).. والآن لم أعد خائفًا من شيء.

فـي صمـت

عند ذلك الركن المظلم أسفل الكوبري التقينا في صمت.. غشينا الظلام والبرد والوحدة والأمطار التي لم تتوقف منذ الصباح.. كانت ساقها الأمامية قد انكسرت، ولكنها كانت تقاوم وهي تزحف بباقي قوائمها أن تصل إلى ذلك الجانب المستتر وراء الكوبري لتضع جروها الذي تمسك به بأسنانها.. تطلعت إليها للحظة في شرود قبل أن أتذكر سبب وجودي هنا، فنفضت عني تلك المشاعر ووضعت ذلك الصندوق المقوَّى الذي يحوي ابني الرضيع بجوارها.. لا أعرف حقًّا لماذا اطمأننت عليه معها، ربما كنت أعلم أنها ستحميه أكثر مني وأنه سيجد حنانًا لديها لا توجد ذرة واحدة منه عندي.. فليلتقطه أحد المارة أو حتى يموت، المهم ألا يكبر ليجد أمه تعمل تلك المهنة الوضيعة.. لا يجب أن يعرفه الناس بأنه ابن لعاهرة مثلي.

بهدوء وضعت هي جروها واستكانت بجانبه لتلقمه ضرعها الذي أخذ يرتشف منه قطرات من اللبن تروي ظمأه.. نظرت إلى ابني الذي يبكي بشكل يمزق نياط القلب.. هل يبكي جوعًا؟.. لا أعلم، ولكن لا ترهق نفسك يا صغيري.. لن تجد قطرة لبن واحدة في صدري لأمنحها لك كأي أم.. فأنا أصلًا لست بأم.

اكتفى الجرو من طعامه فنهض في حذر - وبترقب بالغ من الأم - على قوائمه ببطء شديد، قبل أن يعتدل واقفًا ثم يخطو أولى خطواته في استكشاف العالم من حوله.. حينها فقط رمقته أمه بنظرة وداع أخيرة قبل أن تستكين في رقدتها برضا لمحته في عينيها الحزينتين، ثم رحلت إلى الأبد في صمت.. كان وقتي قد انتهى وكذلك دوري هنا.. ألقيت نظرة وداع بدوري على رضيعي قبل أن ألتفت يمينًا ويسارًا باحثة عن شيء ما.. ثوان وظهرت في الأفق تلك السيارة التي تحمل مجموعة من الشباب..

بكلمات بسيطة تحدثنا واتفقنا على السعر المطلوب، قبل أن أفتح باب السيارة لأدلف إلى الداخل.. وقبل أن تتحرك السيارة.. ألقيت نظرة أخيرة على المكان كله ثم طلبت منهم أن نذهب.. ورحلت السيارة ورحلت معها إلى الأبد.. في صمت.

سـر حارتنـا

تريد أن تعرف سر حارتنا الصغير؟.. حسنًا ستعرفه، ولكن أرجوك.. لا تخبر أحدًا.

* * *

دعني أحدثك أولًا عن حارتنا نفسها.. تلك الحارة المثالية بشكل لايصدق.. أنا نفسي كنت أظن أنها جزء من فيلم عربي قديم جدًّا من فرط ما كنت أراه فيها من أشياء لا تعقل.. فحارتنا لم تعرف في حياتها شرًّا قط.. أهلها أناس مسالمون للغاية، لا أذكر أبدًا أني رأيت أحدًا منهم يتشاجر مع جاره لأي سبب كان، ونفس الحال ينطبق على النساء والأطفال.. الكل يحب بعضه.. لا فارق بين بيت فلان أو علان فكل البيوت في النهاية مفتوحة للجميع.. الوحدة الوطنية؟.. تراها مجسدة بمعناها الحقيقي عندنا.. (محمد) مثل (بطرس) و(ماري) مثل (فاطمة).. الكل سيان ولا يميزه سوى شخصيته سواء كان مرحًا أو جادًا.. طيبًا أو شريرًا.. وحتى تلك الصفة الأخيرة لم تكن موجودة في حارتنا.. لم تسمح لها بيئتنا الطيبة أن تظهر أبدًا مهما حاولت.. ولكن شيئًا واحدًا كان من الجبروت والطغيان بأن يتجاوز كل هذا ويحكم قبضته على قلب الحارة.. (سليم).

و(سليم) هذا ابن أحد المجرمين العتاة في مصر، والذي أرهق الشرطة كثيرًا حتى استطاعت أن تعثر عليه بعد كم الجرائم التي ارتكبها.. يقولون إنه ينحدر من سلالة الفتوات الذين كانوا يحكمون الحارات المصرية وشوارعها قديمًا.. لا أعرف حقًا، ولكن ما رأيناه من (سليم) جعلنا نظن أنه ينحدر من سلالة إبليس ذاته.

كان قد ارتكب من جرائم الاغتصاب والسرقة وحتى القتل ما تحتاج لمجلد لتدوينها.. ولكنه دومًا وفي اللحظة الأخيرة يفلت ببراعة تاركًا أحد صبيانه يتحمل القضية وحده، وإن حاول أن يعترف عليه فلا جزاء له سوى القتل دون شفقة أو رحمة.

(ليس في كل مرة تسلم الجرة).. كنا نقولها لبعضنا البعض ونحن نتطلع له من بعيد وهو يتجول في الحارة وكأنه ملكها المتوج، داعين الله عز وجل أن يخلصنا من هذا الكابوس.. وبالفعل.. وقعت الجرة يومًا وانكسرت، وألقوا القبض على (سليم) في قضية مخدرات كبيرة شملت أناس لهم ثقلهم ووزنهم في البلد.. وكان هو أقلهم في المحاكمة، فعوقب بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا و.. وانتهى الأمر وتنفسنا الصعداء.. مرت السنون ونسينا (سليم) والقصة بأكملها.. هل السنين تمر بسرعة؟.. أعتقد أني عرفت الإجابة حين اتجهت إلى جامعتي هذا الصباح فرأيت (سليم) يسد مدخل الحارة بجسده العملاق.

* * *

- لقد عاد (سليم).. ماذا سنفعل؟

قالها عم (ميخائيل) الحلاق في رعب وهو يجلس معنا ليلًا على تلك القهوة في قلب الحارة، فأجابه أبي في توتر:

- لا أعرف يا (ميخائيل).. لم نحسب أنه سيخرج من السجن أبدًا.. ظننا أن السنين قد توقفت، ولكننا كنا مخطئين.

قال (يسرى) السمسار :

- لماذا لم تكن المدة خمسون عامًا؟.. كيف يتركون مجرمًا كهذا يخرج بتلك السرعة؟

زفر عم (ميخائيل) في حرارة وهو يقول:

- خمسون عامًا أو حتى قرن.. المهم أنه قد خرج الآن، فما العمل؟.. هل سنتركه ليعود من جديد ليهيننا ويستعبد الحارة برمتها؟

قال أبي في حزم:

- مستحيل.. لقد كنا ضعفاء قديمًا وتركناه يخضع الجميع لأوامره.. الآن لن أسمح له أن يعيدنا لما كنا عليه.. على جثتي.

ازدرد عم (مسعد) الترزي ريقه بصوت مسموع قبل أن يميل علينا ليقول بصوت هامس وكأنه يبوح بسر خطير:

- لقد جائني بالأمس يطلب يد ابنتي.

استدرنا جميعًا محدقين إليه في ذهول، قبل أن يفتح عم (قباري) الجزار فمه صائحًا:

- ماذا؟.. هل جن؟.. إنه...

- هششش...

كانت تلك مننا جميعًا في نفس واحد، فأخفض صوته وهو يتابع هامسًا تلك المرة:

- إنه في الأربعين الآن فكيف يطلب يد بنت في نصف عمره؟.. ثم ألم يجد سوى (هبة) زينة فتيات الحارة؟.. على جثتنا طبعًا أن نلقي البنت بتلك الطريقة.. لن نبيع عرضنا على آخر الزمن.

لوح عم (مسعد) بيده قائلًا وقد حمسته شجاعة صديقه:

- هذا ما قلته له بالضبط.. لن أبيع ابنتي أبدًا بهذا الشكل، أتسمعني يا (سليم)؟.. ثم فتحت الباب و...

وطردته.

اتسعت عيونهم انبهارًا وهم يتطلعون إليه للحظة في حسدعلى شجاعته، قبل أن يسألوه في نفس واحد عما حدث بالتفصيل، فاعتدل هو وبدأ يروي قصته بحماس وفخر كبيرين.. أما أنا فقد تراجعت في مقعدي للوراء ناظرًا إليهم في صمت مبتسمًا من تلك

الطيبة التي تسكن قلوبهم وهذه البساطة التي لم أرها في أحد قط.. كل هذا مر عليَّ لثوان فحسب قبل أن أدير بصري إلى بيت (سليم) المظلم في نهاية الحارة شاعرًا بأن الأمور لم تنته عند هذا الحد وأن القادم أسوأ بكثير.

مرت أيام بعد هذا الحديث وعادت الأمور لتستكين تمامًا كما كانت قديمًا.. وعاد الجميع يمارس عمله بصورة طبيعية وكأن جديدًا لم يطرأ على الحارة.. حتى أتى هذا اليوم الذي لن أنساه قط في حياتي.

* * *

كان يومًا طبيعيًّا كأي يوم آخر.. عدت من جامعتي فاستلمت مكاني في متجر البقالة الصغير الخاص بنا بدلًا من أبي الذي صعد إلى البيت ليصلي ويستريح قليلًا.. مرت من أمامي عمتي (تيريز) كما تحب أن نناديها.. وهي زوجة عم (ميخائيل) إن لم تكن تعرف.. دخلت المحل لتشتري بضعة أشياء، وأخبرتني بما تريده فأحضرته لها وهي تخبرني في فخر - لتغيظني - عن صينية البطاطس باللحم التي ستعدها اليوم في البيت.. وأمام لعابي الذي سال مع هذا الوصف قالت مبتسمة أنه يمكنني أن آتي دون حرج لأتناول الغذاء من يدها كما كنت أفعل وأنا طفل صغير و....

وفجأة قطعت كلامها تلك الصرخة الشنيعة.

هرعنا أنا وهي لنرى ما يحدث فرأينا تجمهرًا يحيط بشيء ما لم نكتشف ما هو أمام محل الجزارة الخاص بعم (قبار).. صرخت عمتي (تيريز) في رعب:

- (مايكل).

وبدون وعي جرت ناحية التجمهر ومن ورائها أجري بدوري وقد أثارت قلقي صرختها باسم ابنها الصغير.. وحين شقتنا الجموع المتزاحمة وجدنا الطفل يرقد أرضًا في صمت وساقه تنزف بغزارة وقد تمزقت بشكل بشع.. هرعت تحتضن الطفل وهي تصرخ في ارتياع بينما هتفت أنا فيمن حولي:

- ماذا حدث؟.. فليخبرني أحدكم.

أطرق الجميع أرضًا في خوف شديد رافضين النطق بحرف واحد وكأن أفواههم قد كممت...وقبل أن أقل شيئا تغلب أحدهم على صمته وقال في تردد:

- إنه.. إنه (سليم).. لقد رأيت كلبه الضخم هذا الذي يلازمه في كل مكان يفلت من يده ليجري ناحية كيس اللحم في يد الطفل، محاولًا انتزاعه من يده قبل أن يعضه في ساقه بتلك الصورة.. هذا ما حدث والله والجميع يشهد بهذا.

تطلعت إلى الجميع من حولي فأشاحوا بوجوههم بعيدًا بمنتهى الانكسار والضعف.. حينها أزحت الناس عني والغضب يعميني تمامًا لأهرع تجاه (سليم) الذي وقف يراقب المشهد من بعيد في استمتاع، وأنا أصرخ:

- ستموت أيها القذر.

حاول الكلب أن يفلت من يده مجددًا ليحمي صاحبه لولا أن أحكم (سليم) قبضته على السلسلة منتظرًا إياي في هدوء.. وفي اللحظة التي أصبحت فيها أمامه بالضبط كان هو الأسرع مني ليلطمني بظهر يده التي كساها القفاز المطعم بالحديد.. تلقيت اللطمة بصمود وحاولت ألا أسقط أمامه، فأعقبها تلك المرة بلكمة عنيفة من يده كانت كالقنبلة لدرجة جعلت رأسي يدور قبل أن أسقط أرضًا مقاومًا الغيبوبة التي تجتاح عقلي.

أسرع أهل الحارة لنجدتي وأحدهم يهتف في غضب:

- ماذا تفعل يا سليم؟.. إنه ما زال صغيرًا يا رجل.

زمجر الكلب في وحشية فربت (سليم) على رأسه وهو يقول بمنتهى البرود:

- لقد تطاول عليَّ وهذا عقابه الذي يكفيه فقط لأنه ما زال صغيرًا.. لكن كل من يفكر في التصرف مثله سيلاقي عقابًا أشد.. مفهوم؟

وأنت يا ست (تيريز)..

قالها ثم التفت ناحية عمتي (تيريز) وهو يخرج بعض المال من جيبه ويلقيه إليها مضيفًا:

- وأنت يا ست (تيريز).. هذا حق ابنك فيما فعله كلبي.. عالجيه واحتفظي بالباقي.

كانت إهانة لا توصف تلقتها عمتي (تيريز) بمنتهى القسوة، فتطلعت إلى من حولها وإلى زوجها الذي خرج من متجره مسرعًا، مستنجدة بهم لكنها لم تجد سوى الانكسار والخوف ردًّا لها.. فاحتضنت ابنها في حنو وأخذت تصلي وهي تبكي في حرقة...

صلاة خافتة لم أسمعها ولم يسمعها أحد.. صلاة لله الواحد القهار كانت بمثابة الصفعة التي تلقاها كل واحد منا على وجهه عقابًا له على صمته وخضوعه.. بعد أن تخلى الجميع عنها.. أما أنا فقد أنهضني أبي في صعوبة وهو يتمتم بكلمات حانقة ويلقي وعيدًا أعلم جيدًا أنه لن ينفذ حرفًا منه، بينما رأسي وسط هذا الجنون يطن بعنف.. ليس خوفًا وليس حنقًا.. بل يطن بألف فكرة.. وألف خطة.

* * *

بعد تلك الأحداث لم يعد أحد في الحارة يجرؤ على رفع عينه في وجه (سليم).. لم يجد أحد في نفسه الشجاعة لتقديم بلاغ بما حصل وإلا سيكون عقابه شنيعًا حتمًا...

أما عمتي (تيريز) فقد تركت النقود كما هي على الأرض، وعالجت ابنها على حسابها الخاص.. وظلت لثلاثة أيام كاملة لا تكلم أحد من الحارة ولا حتى زوجها نفسه.. الكل انكسرت صورته أمام عينيها.. فقط الوحيد الذي كانت ما تزال تتعامل معه هو أنا.. ولكن برغم هذا كنت أراها فأطرق بوجهي أرضًا في خجل مثل باقي أهل الحارة.. أنا لم أقدر على حمايتك يا عمتي.. ولم أعِد لك حقك.. فلماذا تختصينني بحنانك عن الجميع؟.. لماذا ظننتِ أن تهوري لحظتها كان شجاعة مني ولم تكن لحظة غباء تصورت فيها أني بطل وحامي الحمى؟.. يا لغبائي وضعفي وقلة حيلتي.

مرت أيام وأسابيع.. ونسيت الموضوع تمامًا وعدت لحياتي الطبيعية كما كنت.. وجاء الصيف وبدأت العائلات تهرب من حرارته القاسية وتخرج إلى الأماكن العامة لتغير الجو المقبض الذي خيم على الحارة.

انتظرت يومًا بعد يوم، حتى جاءت اللحظة التي انتظرها.. لحظة أن خرج عم (مسعد) وأسرته إلى القناطر، تاركين خلفهم (هبة) متظاهرة بالتعب لتبقى في البيت.. كانت (هبة) هي الفتاة الوحيدة التي أحببتها في حياتى...وكان الشوق فعلًا يدفعني لأراها بعيدًا عن الحصار الذي يفرضه أبوها عليها.. اتفقت معها أن تبقى في البيت ذلك اليوم حين يغادر أهلها.. حتى أصعد وأراها ونجلس معًا وحدنا.

وبالفعل انتظرت أن مر عم (مسعد) وأسرته من أمام مدخل بيتنا الذي أقف فيه مستترًا.. لأتلقَّى بعدها مكالمتها تخبرني بنجاح

الخطة حتى الآن.. ولكن بينما أكلمها ناداني أبي من الشرفة لآتي له بأشياء يحتاجها.. أخبرتها في الهاتف أني سأتأخر نصف ساعة حتى أنهي ما يريده أبي.. قلتها وأغلقت الهاتف مغادرًا الحارة في حنق ليس له مثيل.. ولكن تفصيلة صغيرة فاتتني ولم أنتبه لها في ذلك الوقت.. (سليم).

وقف هذا اللعين يستمع إليَّ في انتباه قريبًا من مدخل البيت وعلى وجهه بركان من الغضب لأني سرقت حبيبته منه.. ولكن هذا الغضب لم يلبث أن تحول إلى ابتسامة شهوانية قذرة حين عرف أني سأتأخر عنها لنصف ساعة وأنها وحدها الآن في البيت.. انتظر لحظة أن غادرت ثم طلب من رجاله أن ينصرفوا لأن وراءه عمل عليه إنجازه.. حاولوا أن يفهموا منه أكثر فلم يرد أن يشرح.. فبرغم كل المصائب التي ارتكبوها معًا إلا أنه رئيسهم.. ولا يصح أن يقوم الرئيس بتصرفات الصبية تلك ويجري خلف شهوته.. هذا سيقلل كثيرًا جدًّا من هيبته أمامهم.

وكما فعل مع.. انتظر أن غادر رجاله جميعًا ثم تحرك ناحية بيت عم (مسعد) المقابل لبيتنا.. تسلل في خفة لص محترف دون أن يشعر أحد به وقد سهلت قلة الحركة وغياب معظم أهل الحارة عن ملاحظته.

وبمنتهى الحذر استخدم أدواته في فتح الباب في ثوانٍ معدودة وبسهولة تامة قبل أن يدلف للداخل.. كان البيت مصمتًا تمامًا ما عدا حجرة في آخر الشقة ينبعث منها صوت أغنية ما.. ومن الباب الذي لم يكن مغلقًا تمامًا لمح (هبة) وهي تتمايل وترقص مع إيقاع الأغنية فازدادت شهوته أكثر وهو يخلع قميصه ويتقدم إلى الحجرة و....

وفجأة فتح باب الحجرة المجاورة وخرج منه عم (مسعد) ومعه (يسري) وكلاهما يحمل عصى غليظة مرعبة الشكل...

ومن الباب الآخر ظهر عم (ميخائيل) وهو يحمل سكينًا عملاقة تشبه السيف الذي يحمله عم (قباري) بجواره...

ومن باب الشقة دخل أبي فجأة ووراءه رجال الحارة وقد تنوعت الأسلحة في أيديهم ما بين السكاكين والسيوف والعصي...

أما أنا فقد خرجت من قلب حجرة (هبة) وعلى شفتي ابتسامة ساخرة متمتمًا:

- أهلًا أهلًا بكبير الحارة وسيدها.

لمحت تلك الارتجافة على جانب شفتيه للحظة وهو يتطلع إلينا قبل أن يسألني في تماسك:

- ماذا يحدث؟.. وكيف جئتم؟.. لقد رأيتكم تغادرون جميعًا.

قال (يسري) ساخرًا وهو يشير إلى أعلى:

- من السطح يا (سليم).. أنت لص محترف وتعرف أن البيوت القديمة متلاصقة في أسوارها ومنخفضة الطول فلم نجد صعوبة في العودة إليها من جديد.. والآن ماذا تحب أن تشرب يا عزيزي؟

أجابه (سليم) في سخرية حاول فيها إخفاء توتره:

- لا شكرًا، لقد سبقتكم.. تفضلوا أنتم ولا تقلقوا بشأني.. سأغادر حالًا.

قالها وهو يلتقط قميصه من على الأرض ويستدير مغادرًا بالفعل لولا أن وجد حد السيف مستقرًّا على جانب رقبته ومن ورائه وجه عم (قباري) الغاضب وهو يقول:

- لا يا رجل.. لا يصح هذا.. أنت في بيت واحد من رجال الحارة وينبغي أن تأخذ حقك وزيادة.

تقدم عم (ميخائيل) للأمام وهو يقول بدوره:

- فعلا.. والخدمة تلك المرة ستكون خمس نجوم.. النساء كلهن في بيت واحد منا الآن ومعهن الأطفال... ونحن جميعًا كما ترى أمامك.. جئنا لنخدمك وبأنفسنا.

ومع آخر حروف كلماته أحاط به الجميع وقد أحكم كل واحد منهم قبضته على سلاحه جيدًا، قبل أن يقول أبي بحزم:

- (أحمد).. خذ (هبة) وارحل من هنا.. هيا.

حاولت الاعتراض لكن نظرة أبي الصارمة جعلتني آخذ بيد (هبة) وأرحل معها مغادرين المنزل كله.. كانت الحارة خالية تمامًا لأول مرة في حياتنا.. فازددت سرعة محاولًا الخروج من هنا بأي ثمن قبل أن.. (آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه).. تدوي تلك الصرخة المريعة قادمة من بيت عم (مسعد)...

سددت أذني وأنا أسير مسرعًا بجوار (هبة) التي تعلقت بيدي في خوف.. لم أعرف أن الانتقام سيكون بشعًا بهذا الشكل وأنا أرتب لتلك الخطة معهم.. أردت أن أرحل بسرعة من الحارة قبل أن تلازمني صرخات (سليم) إلى الأبد، ولكني تأخرت.. أو بالأحرى هم من كانوا متلهفين لتنفيذ انتقامهم هذا بفارغ الصبر.. ومع كل خطوة أخطوها مغادرًا الحارة كانت تأتينا تلك الصرخات لترج الحارة رجًّا وتجعل قلوبنا تهوي بين أقدامنا.

ماذا فعلوا بـ(سليم)؟.. عرفت الإجابة حين عدت ووجدت الدماء تغرق الشقة.. عرفتها حين رأيت تلك الحقائب التي جمعت أشلاء الرجل، وكل واحد من رجال الحارة يحمل واحدة ليغادر المنزل.. وفى تلك الأطلال التي تحتل جزءًا صغيرا في نهاية الحارة اجتمعنا ودفنا تلك البقايا.. إلى الأبد.

لم يجرؤ أحد على التنصُّل من الحقيقة أبدًا.. حق بدون سلاح يحميه هو مضيعة للوقت لا أكثر.. واليوم فقط امتلكوا السلاح ومعه الشجاعة فأخذوا حقهم كاملًا.

لم تعلم الشرطة بما حدث.. ولم يجرؤ أحد من رجال (سليم) على التقدم ببلاغٍ عنه.. قبل كل شيء لن ترهق الشرطة نفسها بحثًا عن مواطنًا عاديًّا.. فما بالك بمجرم مثل (سليم).. بحث

رجاله عنه طويلًا دون جدوى، ولكن في تلك الليلة التي وصلتهم فيها رأس (سليم) في حقيبة سوداء كبيرة، عرفوا ماذا حدث لكبيرهم بالضبط.. ودون أن ينتظروا معرفة من فعلها هربوا فزعين بعد أن تلقوا التحذير الذي أرسلناه لهم وفهموه جيدًا.. وكانت تلك هي آخر مرة يراهم أحد منا في الحارة.. نهائيًّا.

* * *

أردت أن تعرف سر حارتنا الصغير؟.. حسنًا، لقد عرفته.
ولكني أعلم أنك لن تخبر أحدًا، وإلا حينها ستكون خطرًا على حارتنا.. ونحن صرنا نعرف جيدًا كيف نحمي أنفسنا ضد الخطر.

لحظــة ضعــف

بنعومة شديدة تسربت أشعة الشمس من بين السحب الداكنة كخيوط الذهب، وغمرت الطرقات التي أغرقتها الأمطار الغزيرة طوال الليل، دون أن تتوقف إلا مع ساعات الصباح الأولى.. ووسط الهدوء الذي ساد تلك الحارة الضيقة في قلب الإسماعيلية، انبعث صوت مذياع خافت على إحدى القنوات الإذاعية المحلية ليبث الأدعية والابتهالات الخاصة بالصباح، ثم ارتفع صوت مذياع آخر من مكان جديد، ثم آخر، وآخر...

وبسلاسة بدأ النشاط يدب في الحارة، وارتفع صوت الباعة المتجولين وهم يعرضون بضاعتهم البسيطة للجميع، وتزاحم الناس على منفذ لبيع الخبز، وكل واحد منهم يخرج حاملاً ما يكفيه قبل أن يتوجه إلى عربة الفول الصغيرة في آخر الحارة ليبتاع وجبة أسرته الأساسية والتي تلائم معيشتهم وقدرتهم المالية.

ومن بين كل هؤلاء، قبع عم (جلال) العجوز في متجره الضيق للغاية، ضامًّا جسده ليمنحه مزيدًا من الدفء، لم تقدر بطانيته الثقيلة على كتفيه، أو موقد الكيروسين المشتعل أمامه على منحه إياه.. وبهدوء اكتسبه طوال سنوات عمره، أخذ يرتشف رشفات بطيئة من كوب الشاي الساخن بين كفيه، وهو يرمق الناس الساعية في كل الاتجاهات على احتياجاتها، بينما ابتسامة الشفقة ترتسم على شفتيه المتغضنتين.

لقد كان يومًا ما مثلهم.. شابًّا يافعًا يدور ويدور خلف رزقه، وحماس الشباب هو دافعه ومحركه الأساسي.. ولكن العمر

يجري، وها هو الآن قد أصبح عم (جلال) صاحب الحانوت الصغير، الذي يبيع فيه الخردوات البسيطة وبعض الحلوى.. يعرفه كل أهل الحارة ويحبونه بصدق.. هو بركتهم كما يحبوا أن ينادونه، وكما يحب هو منهم و...

–عم (جلال)؟.. أما زلت مستيقظًا حتى الآن؟!

أفاق من شروده على تلك الجملة التي قالتها إحدى جاراته في الحارة، فاعتدل في جلسته قائلًا بابتسامته المعهودة:

–صباح الخير يا (كريمة).. كيف حالك اليوم يا بنيتي؟.. اعذريني فقد كنت شاردًا قليلًا.

قالت مشاكسة وهى تغمز بعينيها:

–ومن تلك التي تشغل بالك يا عجوز؟

أطلق ضحكة واهنة دون أن يرد، بينما عادت هي تسأله في جدية تلك المرة:

–والآن دعك من هذا وأخبرني.. ما الذي جعلك تبقى مستيقظًا بعد صلاة الفجر، وفي هذا البرد القارص؟!

مد يده ليقرب موقد الكيروسين منه أكثر، مانحًا بعض الدفء لعظامه التي تئن، قبل أن يجيب:

–حين انتهت الصلاة قررت أن أصعد لأنال قسطًا من الراحة قبل أن أنهض لأعد الطعام لضيوفي القادمين.. لكني تذكرت أن اليوم هو أول أيام العام الدراسي الجديد، ولم أقدر على تفويت رؤية أطفال الحارة في أبهى صورة، وهم يرتدون ملابسهم

الجديدة، ويتجمعون عندي لأعطيهم الحلوى التي يحبونها قبل أن يذهبوا إلى مدارسهم.. هذه هي الطقوس التي تعودت عليها معهم طوال عمرهم ولا يمكنني مخالفتها مهما حدث.. سأسبب لهم إحباطًا كبيرًا إن رأوا متجري مغلقًا في هذا اليوم بالذات.

رفعت حاجبيها في تأثر بالغ من تلك الإجابة التي لم تتوقعها مطلقًا...

يا إلهي.. أمن الممكن أن يتواجد شخصًا بكل تلك الطيبة والحنان في زمننا هذا؟.. أيقضي الليل ساهرًا ومتحملًا البرد القارس والمطر الغزير، فقط كي يلقي تحية الصباح على الأطفال ويمنحهم بعض الحلوى؟.. يا لحنانه ورقته!!.. إنها تزداد حبًّا وتعلقا به يومًا بعد يوم.. ولم لا وهي التي لم تر أباها قط، ولم تشعر بحنان الأبوة، إلا من بعض الكلمات الرقيقة، والابتسامة الدافئة التي تجدها عند هذا الشيخ العجوز.

ومع هذا الإحساس الجميل الذي غمرها، وجدت الابتسامة ترتسم على شفتيها وهي تقول:

-أطال الله في عمرك يا أبي.. وملأ كل أيامك سعادة.

أخجلته تلك الكلمات، فابتسم لها في حنان أبوي دون أن يعقب بحرف.. أما هي فقد جال بخاطرها شيء بغتة فسألته باستغراب:

-لقد قلت إن هناك من سيأتي لزيارتك اليوم، أليس كذلك؟.. من هو؟

أطلت من عينيه نظرة سعادة واضحة وهو يجيب:

-إنها ابنتي وزوجها وحفيدي (طارق).. سيصلوا اليوم من السفر لزيارتي.. هل نسيتي إنها عادتهم في كل عام؟

تجمدت (كريمة) في مكانها مدهوشة، وهي تحاول أن تنطق بشيء إلا أن الكلمات لم تسعفها.. فسألها عم (جلال) في تعجب:

-(كريمة)؟.. ما بك يا صغيرتي؟

لوَّحت الفتاة بيدها بلا معنى وهي تجيب:

-لا.. لا.. لا شيء يا عم (جلال).. لقد تعجبت فقط أن الوقت قد سرقنا جميعًا.. هل مر عام بهذه السرعة؟

أجابها في بساطة:

-لم يعد في الأيام بركة كالسابق يا بنيتي.. ولكن أصدقك القول أن تلك المرة كانت الأصعب بالفعل.. شعرت أكثر من مرة أن الله لن يطيل في عمري لأراهم مجددًا هذه السنة.

ازدردت ريقها في صعوبة وهي تقول:

-لا تقل هذا يا عجوز.. ما زلت تتمتع بشبابك كما عهدناك دومًا.. وبإذن الله سيمد الله في عمرك لتراهم بعد عشر سنوات.

قالتها ثم استأذنته لتغادر.. ولكنها ما أن ابتعدت بضع خطوات حتى توقفت فجأة، وقد جالت بخاطرها فكرة ما فعادت إليه من جديد قائلة:

-اسمع.. ما رأيك أن تتركني هذه المرة لأتولى تحضير الطعام بنفسي؟

سألها في دهشة:

-ولم؟.. ما المميز هذه المرة؟

لوحت بيدها وهي تجيب:

–لا شيء.. أريد فقط أن أفعل لك شيئًا مميزًا لأعبر لك عن سعادتي بوجودك معنا في الحارة.

قال في حنان:

–لا داعي لهذا يا بنيتي.. يكفيك ما تتحملينه من أعباء.. لن أفرض عليكِ حملًا جديدًا.

ربتت على يده وهي تقول:

–هذا أقل ما يمكنني فعله من أجلك يا عم (جلال).. لقد خدمتنا كثيرًا، ولك في كل منزل بالحارة جميلًا ومعروفًا يجب أن نرده يومًا ما.. ألا تريدنا أن نخدمك ولو لمرة؟

قالتها ثم أشارت إليه مضيفة في جدية مصطنعة:

–لن أتراجع عن قراري، سأتولى أنا تحضير الطعام كما أخبرتك.. ولا تقلق.. أعدك أن زيارة ابنتك هذه السنة ستكون مختلفة تمامًا ولن تنساها أبدًا.

أطلق ضحكة قصيرة وهو يسألها باستغراب:

–لماذا؟.. ما الذي تنوين فعله بالضبط يا فتاة؟

أجابته في حماس:

–لا تشغل بالك بالتفاصيل ودع كل شيء لي أنا.. فقط إن سار كل شيء كما أخطط له، فستجد بانتظارك مفاجأة كبيرة لن تتخيلها.

فتح فمه لينطق بشيء لولا أن أسرعت هي لتقول:

–لن أخبرك بشيء الآن، فقط تمنَّ لي أن أنجح في تنفيذ المفاجأة كما أخطط لها.. والآن هيا.. أغلق متجرك واصعد لتنل قسطًا من النوم، وحين تستيقظ ستجد الطعام كله جاهزًا وعلى أكمل وجه.

ابتسم لها في امتنان بالغ، لم يقدر على التعبير عنه بكلمة شكر واحدة تفي حقها، أما هي فقد حملت مشترياتها من على الأرض قبل أن تغادر المتجر.. ولكنها ما أن ابتعدت قليلًا حتى التفتت خلفها لتلقي نظرة طويلة عليه وهو ينهض ليدخل بضاعته البسيطة المتناثرة أمام المتجر إلى الداخل، قبل أن يبدأ في إغلاقه، دون أن يشعر بنظرة (كريمة) له.. تلك النظرة الصامتة التي حوت في أعماقها ألف سؤال وسؤال بلا إجابة.

ومع صوت أذان العصر القادم من المسجد القريب، استيقظ عم (جلال) من نومه، وشعور بالغ بالسعادة يسري في أوصاله، باعثًا فيها نشاطًا لم يستشعره من قبل.. وبحركة سريعة نهض من فراشه ليتوضأ ويخرج ليصلي ما عليه من فروض، قبل أن يفتح نوافذ شقته، سامحًا للضوء الهادئ للشمس في ذلك الوقت أن ينتشر في أرجائها، ومع آخر نافذة يفتحها، طالعه وجه (كريمة) وهي منهمكة في مطبخ منزلها الذي تطل عليه نافذته، وبدا الانشغال واضحًا عليها لدرجة أنها لم تره واقفًا هكذا يتطلع إليها في حنان أبوي صادق.

وكأن مشاعره قد اكتسبت شكلًا ماديًّا ملموسًا، اقترب من كريمة ودق قلبها في هدوء منبهًا إياها إلى وجوده قربها، فوجدت

نفسها تلتفت إلى النافذة وقد أشرق وجهها لرؤيته، قبل أن تهرع إليها لتفتحها قائلة في مرح:

-ما كل هذا النوم يا عجوز؟

-صدقيني يا (كريمة).. أنا لم أعرف طعمًا للنوم مطلقًا.

-كل هذا بسبب زيارة ابنتك لك؟

-وأكثر يا كريمة.. لقد افتقدتها كثيرًا هذه المرة.. طوال فترة غيابها لم أكن أذق طعمًا للنوم أبدًا.. ما أن أضع رأسي على الوسادة حتى تنتابني الكوابيس المزعجة، وأحلم دائمًا أني سأموت قبل أن أراها أو أرى حفيدي (طارق).

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يستطرد:

-ولكن الله استجاب لدعائي المستمر، وأمد في عمري حتى أراهم من جديد ولو لآخر مرة في حياتي.

قالت له في حماس وهي تحاول تغيير الموضوع:

-أرأيت؟.. أنت بهذا تعطلني أيها العجوز.. ينبغي أن تتركني أعمل حالًا إذا كنت تريد أن تجد وليمة فاخرة في انتظار ابنتك.

عاد ليبتسم لها في امتنان وهو يهم أن يغلق نافذته من جديد لولا أن هتفت به:

-عم (جلال).. لقد نسيت.. ألا تريد أن تعرف المفاجأة التي أعددتها من أجلك؟

أطلت نظرة تساؤل من عينيه فتابعت (كريمة):

لقد أوصيت كل نساء الحارة بمشاركتي في صنع وليمة هائلة احتفالًا بزيارة ابنتك.. كل امرأة ستتولى تحضير صنف مما تجيد طهيه، وفي النهاية ستجد لديك مأدبة عامرة بالطعام هدية من كل أهل الحارة.

تطلع إليها في صمت وقد ألجمته مفاجأتها تلك، ووجد من الصعوبة عليه أن ينطق بشيء، مع كل تلك الانفعالات والمشاعر المتزاحمة في قلبه...

يا إلهي.. ألهذا الحد يحبونه؟.. يقضون اليوم كله في تحضير مأدبة لابنته وأسرتها، فقط إكرامًا لخاطره؟.. كل هذا من أولئك الناس البسطاء؟.. يا لغرابة الدنيا!

أفاق من شروده على صوت (كريمة) وهي تهتف به:

-عم (جلال)، فيم شرودك؟.. لا وقت لهذا.. اذهب لتحضر شيئًا من يديك لابنتك.. نحن نعرف أنك طباخًا ماهرًا، فلا تبخل على ابنتك بشيء تجيد صنعه.. هيا.

تغلب على مشاعره بالفعل، وعاد ليدخل مطبخه حتى يحضر أفضل ما يجيد صنعه من طعام، ليضعه بجانب ما قدمه أهل الحارة في تلك المأدبة.

ورويدًا رويدًا ووسط انهماكه، أخذ الليل يهبط في هدوء مسربلًا عباءته على أرجاء المكان، ومعه يضاء ركن بعد ركن في الحارة.. ولكنه انتبه فجأة على صوت جرس الباب، لينتفض جسده الضئيل في قوة، وتسري فيه قشعريرة باردة وقد ظن أنها ابنته.. فهرع يفتح الباب، لولا أن وجد إحدى جارته وقد أحضرت ما استطاعت عمله من طعام بداخل طبق مغلف بالورق، راسمة

على شفتيها ابتسامة فخر كبيرة وهي تقدم شيئًا من يديها للرجل العجوز.

دقائق ودق الجرس ثانية ليجد (كريمة) هذه المرة وهي تحمل شيئًا جديدًا لتقدمه.. وهكذا، دقيقة بعد دقيقة يجد من يحضر إليه ما استطاع عمله وتقديمه كمشاركة في تلك الوليمة...

وحين اقتربت الساعة من السادسة مساء كانت المائدة قد امتلأت عن آخرها بالأطباق والأواني العامرة بالطعام.. بينما جلس عم (جلال) في مقدمتها مستندًا بوجهه على يديه وهو يعد الدقائق على وصول ابنته...

دقيقة بعد دقيقة، والقلق ينهش قلبه المريض وعقله يضع ألف احتمال وراء تأخرها بهذا الشكل...

دقيقة بعد دقيقة، وأهل الحارة يخرجون في صمت إلى شرفات منازلهم وقد أطفأوا أنوار بيوتهم الواحد تلو الآخر، محولين الحارة إلى قطعة مظلمة شديدة الصمت، لا يبعث فيها الحياة إلا الضوء الخارج من شقة عم (جلال)، وكأنهم يخشون إصدار أقل جلبة تكسر حاجز الرهبة الذي ساد المكان.. بينما في أعماق كل منهم أحاسيس متلاطمة كأمواج البحر، تجاه تلك اللحظة التي تتكرر كل عام...

دقيقة بعد دقيقة وعدم الارتياح يتحول في قلب العجوز إلى شك، والشك إلى ظن.. ثم يصير الظن اعتقادًا، والاعتقاد إلى يقين يكوي قلبه بنار الألم والجزع...

لن تأتي يا (جلال).. لن تأتي أيها العجوز المسكين.. لقد تعذبت طويلًا وعذبت الناس من حولك بلا داع أبدًا...

هيا.. تمالك نفسك وحاول النهوض.. اخرج إلى الشرفة ونادِ على كل أهل الحارة.

دعهم يأتون...

دعهم يجلسون على مائدتك التي صنعوها بأيديهم.. دعهم يأكلون منها في بطء حزين، وخوف من كسر حاجز الصمت الذي خيم على المكان..

لا تلق بالًا لنظرات الشفقة في أعينهم.. لا تستمع حتى لتعليقاتهم الخافتة...

ارحل في صمت، فلا مكان لك بينهم.. انهض في هدوء واتركهم.

اذهب إلى حجرتك.. إلى دولابك.. إلى ذلك الصندوق الذي تحتفظ به منذ عشرات السنوات، وأخرج منه تلك الورقة الصفراء البالية المقطوعة من الجريدة ثم اقرأها جيدًا..

ألن تصدق ما بها يومًا؟.. ألم يخبرك أهل الحارة منذ زمن ما تعنيه كلماتها؟.. لقد فارقت ابنتك وأسرتها الحياة في حادث الطائرة المروع قبل ثلاث سنوات...

ومنذ ذلك الوقت وأنت تنتظرها كل عام في نفس اليوم الذي كانت ستصل فيه...

تحضر الطعام وتنتظر وصولهم.. وحين يطيل الانتظار عليك، يجسدهم لك عقلك ويسبح معهم في أرجاء البيت.. تتنفس رائحة ابنتك في كل حجرة.. تتحدث مع زوجها في السياسة والكرة والحياة.. تلعب مع حفيدك على السجادة فتملأ ضحكاته المكان.. تعيش في عالم صنعه خيالك دون أن تدري لحظة واحدة أنه

مجرد وهم.. وفي اليوم التالي تنسى كل شيء، وتتذكر فقط أنك في انتظار ابنتك حتى تصل العام القادم...

ولكن هذه المرة ستقنع نفسك بالحقيقة التي يعرفها أهل الحارة وترفض أنت تصديقها.. ستستسلم للحقيقة مهما كانت مؤلمة وقاسية...

أرجوك فحسب ألا تدع جسدك يرتاح على الفراش ويسبل عينيه في هدوء.. أرجوك ألا تدع الخدر يغزو جسدك الواهن فتسكن إليه وتقبله...

تمسك بصورة ابنتك وأسرتها ولا تدعها تهرب من بين أصابعك لتسقط على الأرض.. لا تدع الرؤية تتلاشى رويدًا رويدًا من عينيك اللتين رأتا العالم بأسره...

لا تصدق قلبك وهو يقول:

–انتظرتك كثيرًا يا صغيرتي، ولكنك لم تأتِ.. ولن تأتي...

بل سآتي أنا إليك...

حينها سأعرف أن سنوات عمري الأخيرة لم تكن إلا مجرد لحظة..

لحظة قضيتها بين الاشتياق والخوف..

لحظة أبوة..

ولحظة ضعف..

* * *

لا تخـــبري أحـــدًا

ارتفع أذان المغرب من المسجد القريب في تلك المنطقة النائية بأطراف القاهرة، لتجلس كل أسرة على مائدتها تتناول طعام الإفطار في أول أيام شهر رمضان.. دون أن يدروا أن على مقربة منهم كان الوضع مغايرًا تمامًا في بيت أسرة (الطحاوي).. ففي الوقت الذي لم تذق فيه الزوجة لقمة واحدة وهي تجلس إلى المائدة مع بناتها في سكون، كان زوجها (علي) يقف أمام النافذة وهو يدخن سيجارته في صمت متطلعًا إلى الشارع المظلم الصامت الذي لم تدب الحركة فيه بعد.

كان البيت كله يخيم عليه جو من الصمت يجعل القلوب تنقبض في خوف وهي تتخيل الكارثة التي ستحل بعد قليل.. لحظات ودق جرس الباب قبل أن يدخل منه (عمرو) شقيق (علي) حاملًا لفة كبيرة من الورق، وضعها على المنضدة فبرزت منها مقابض السيوف والخناجر العملاقة وهو يقول في شراسة:

- هذا ما استطعت تجهيزه حتى الآن.. واتصلت بكل رجالنا وسيأتون حالًا.

ألقى (علي) نظرة سريعة على الأسلحة قبل أن يلقي بالسيجارة من النافذة وهو يقول:

- جميل...جميل.

ترددت الزوجة في خوف من غضب زوجها قبل أن تحسم أمرها فتقول:

- (علي).. أرجوك لا داعي لهذا.. لقد عاكس الفتى ابنتنا صحيح ولكنه لم يرتكب إثمًا لتلك الدرجة.. سأكلم أمه لتعاقبه وينتهي الأمر عند هذا الحد.

استدار إليها (عمرو) في غضب وهويقول:

- ومنذ متى تتدخلين في شئون الرجال يا زوجة أخي؟.. هذه أمورنا نحن فدعينا نتصرف.

فتحت الزوجة فمها لتعارضه لولا أن أسرع (علي) قائلًا:

- يكفي يا (سميحة).. لن نفتح موضوعًا ليس وقته الآن.. ثم إن ذلك الفتى ابن (أسعد) قد ارتكب إثمًا كبيرًا بالفعل حين تجرأ واقترب من إحدى بناتي.. ولا أعرف ماذا سيفعل لاحقًا إن ظن أنه نجا بفعلته تلك.

هتفت في حنق:

- إنه مراهق.. هل ستقتله لأنه تصرف بغباء المراهقين؟

هز (عمرو) كتفيه وهو يقول في برود:

- ومن قال إننا سنقتله.. نحن فقط سنلقنه هو وأهله درسًا ليتذكروا ما كانوا عليه حتى لا يتطاولوا على أسيادهم.

لم تبال (سميحة) بما يقوله (عمرو) وهي تعرف مدى شراهته لرؤية الدم ومدى جبروته وظلمه، فاقتربت من (علي) وهى تقول في حنان محاولة استمالة قلبه:

- يا (علي).. إنهم مثل إخوتك.. أنسيت أن أباك قد رباهم في صغرهم بعد وفاة والدهم؟.. هم في مكانة الأشقاء بالنسبة لك.

صاح (علي) في انفعال:

- ولكنهم نسوا يا (سميحة).. نسوا وظنوا أن بناتي لعبة لتسلية أولادهم.. شاركونا تجارتنا وعملنا كما أراد أبي ووافقنا مضطرين، لكن إلا بناتي.. سألقنهم درسًا لن ينسوه في حياتهم أبدًا ليبقوا بعيدًا هم وأولادهم عن أسرتي و...

كاد أن يكمل كلامه لولا أن رأى رجاله وقد ظهروا في بداية الشارع وكل منهم يحمل سلاحًا مختلفًا.. ورغم اختلاف وجوههم وملامحهم لكن تلك النظرة المميزة كانت متماثلة في كل الأعين.. نظرة من أتى ليريق الدماء أنهارًا.

عندها لكز (علي) شقيقه قائلًا وهو يتحرك:
- لنذهب يا (عمرو).. هيا.
قالها والتقط سترته وهو يفتح الباب مغادرًا الشقة، ومن ورائه (عمرو) الذي أخرج علبة من جيبه أخذ منها قرصًا ودسه في فمه قبل أن يحمل اللفة الضخمة من الأسلحة ويرحل في صمت خلف أخيه.
وقبل أن تتصرف (سميحة) أو تفعل شيئًا أتاها صوت حماها الحاج (زاهر) من الداخل يناديها في وهن.. هرعت إليه لتراه فوجدته يحاول النهوض من على السرير في صعوبة بالغة وهو يستند إلى عصاه.. عندها أسرعت تسنده وهي تقول:
- ماذا حدث يا حاج؟.. لماذا تنهض؟.. أنت تحتاج للراحة.
استند الحاج على كتفها بيده المرتعشة وهو يغمغم في ألم حقيقي حاول أن يداريه:
- ينبغي.. ينبغي أن ألحق بهم.. لن أقف وأشاهدهم يقتلون بعضهم هكذا.

لم تقدر ساقه على تحمله أكثر من هذا فوجد نفسه يهوي على الفراش من جديد، حينها تأوَّه في ألم بالغ جعلها تقول في جزع:
- أرجوك ابق هنا يا حاج.. لن تقدر على فعل شيء الآن وأنت بهذه الحالة.
تراجع الحاج برأسه إلى الوراء مرغمًا تحت ضغط يديها، بينما الدموع تتدفق من عينيه وهو يقول في أسى:
- سيقتلون بعضهم يا (سميحة).. أولادي الذين ربيتهم سيقفون ليحاربوا بعضهم بهذا الشكل.. (عمرو) هو من ينفث السم في أذني شقيقه ويجره معه في حرب كان يريدها منذ زمن.
احتضنته (سميحة) وهي تقاوم دموعها في صعوبة قائلة:

- ادع لهم يا عمي ليُنْهِ الله هذا الموقف على خير قبل أن يتأذَّى أحد.

أراح الرجل رأسه على الوسادة وهو يغمغم:

- يا رب.. يا رب.

رددتها معه سميحة وهي تضمه أكثر وتغلق عينيها بقوة لتبعد عنها صورة بشعة تخيلت فيها زوجها ومعه شقيقه ورجاله وقد قتلوا جميعًا وأغرقت الدماء كل شيء بلا استثناء.. ولكنها لم تكن تدري أن نفس الصورة كانت تجول في نفس اللحظة في ذهن زوجها وهو يقف مع رجاله أمام بيت (أسعد) الذي تجمع أمام بيته هو ورجاله وأخوته وفي أيديهم أسلحة أشد إثارة للرعب من تلك التي في أيدي (على).. ورغم السطوة التي يحتمي بها (أسعد) والتي تجعل من في مكانه يغتر بقوته إلا أنه قال بهدوء:

- (علي).. لقد أخطأ ابني في حقكم وأنا مستعد أن يأتي معى ليسترضيك بالوسيلة التي تحبها ولكن اجمع رجالك وعد إلى بيتك.. هيا.

قال (عمرو) في شراسة:

- من أنت حتى تراضينا يا هذا؟.. ومن قال أصلًا إننا نريد ترضيتك تلك؟.. نحن نريد أن نلقنك درسًا أنت وأبناءك حتى لا تتعدوا حدودكم مع أسيادكم.

زمجر شقيق (أسعد) الأصغر في غضب وقد استفزته الكلمة.. فأمسكه (أسعد) من ذراعه مهدئًا إياه وهو يقول:

- لن أعاتبك يا (عمرو) فأخوك الأكبر يحضرنا وله الاحترام.. ولكن لو كنت وحدك لعرفت كيف أعاقبك.

قالها ثم التفت إلى (علي) مضيفًا:

- (علي).. إن جميل أبيك في حقي وحق إخوتي لن ننساه أبدًا، وسيظل دينًا يطوق أعناقنا إلى يوم الدين، ولكننا لن نسكت وأنت

تهيينا هكذا.. أرجوك لآخر مرة ارحل إلى بيتك وأنا مستعد لكل ما تريده.. فقط إكرامًا للصلة التي تربطنا.

بدا التردد على وجه (علي) وقد ألجمه هذا الموقف دون أن يستغربه لحظة.. لقد كان طوال عمره صديقًا حميمًا لـ(أسعد) ويعرفه جيدًا.. طوال عمره وهو يعرفه رجلًا بمعنى الكلمة رغم شقاوته وعدم اهتمامه بالدراسة.. لعبا معًا وذاكرا معًا وتشاركا الأسرار والمغامرات والطعام معًا.. ولكنه كلما كان يقترب منه خطوة ويوطد علاقته به أكثر كان يتراجع خطوات للوراء بسبب أخيه (عمرو) الذي كان دائم الشكوى من (أسعد) وإخوته.. كان يكرههم بشدة ويبغض اهتمام أبيه بهم ومن بعده شقيقه الوحيد، لذلك كان يصر دائمًا على البقاء بعيدًا هو وأخوه عنهم وعن طريقهم.. وحين تقاسموا تجارة الحاج زادت القطيعة بينهم أكثر وأكثر وأصبح مجرد الحديث عنهم شيئًا مستحيلًا و...

قاطعه في تلك اللحظة صوت (عمرو) وهو يهتف بصوت عالٍ في وجههم:

- لقد اكتفينا من الكلام.. ومن اليوم سيكون هناك عقاب للمخطئ ليتعلم الجميع أن عائلة (الطحاوي) ليست لقمة سائغة.

قالها وهو يرفع سيفه عاليا ويصرخ بقوة جاريًا في شجاعة وهمية سرت في عروقه مع ذوبان القرص في دمه، ومن ورائه يتبعه رجاله صارخين بدورهم متعطشين لتمزيق عدوهم.

وفي لحظة واحدة حسم (علي) تردده، ليرفع سيفه وهو يجري بدوره ناحية (أسعد) الذي تطلع لحظة إليه في أسف قبل أن يرفع سلاحه هو الآخر ليستعد لهذا الهجوم المتهور.. وبمنتهى القوة هوى (علي) بسيفه على عنق (أسعد) الذي مال جانبًا متفاديًا النصل ببراعة قبل أن يضرب ساق (علي) بالخنجر الصغير الذي يمسكه في يسراه ليجرحه جرحًا بسيطًا.. كان يمكنه أن يسدد

النصل إلى قلبه في حركة سريعة ولكنه لم يقدر على فعل هذا بصديق طفولته، فتعمد تلك الإصابة الضعيفة.

ولكن (علي) اشتعل غضبًا حين رأى الدماء تسيل من جرح ساقه فزمجر في غضب وهو يركل (أسعد) في ساقه ركلة عنيفة جعلته ينحني في ألم قبل أن يعقبها (علي) بضربه قوية من رأسه كانت كافيه لتجعل رأس (أسعد) يدور وهو يسقط أرضًا وقد فقد توازنه.. كانت تلك الحركة كافية ليقفز (علي) فوقه ويشل حركته تمامًا، وقد أعماه غضبه وذلك الجرح الذي يسيل في ساقه، فرفع سيفه وهوى به على صدر (أسعد) عازمًا تلك المرة على القضاء عليه نهائيًا.

ولكن فجأة أتت تلك الصرخة من ورائه لتجعله يلتفت في جزع وقد ميز صوت زوجته (سميحة).. فوجدها تقف والدموع تسيل من عينيها كالأمطار وهى تهتف:

- أبوك مات يا (علس).. أبوك مات.

لم يسمع تلك الجملة أحد سوى (علي) و(أسعد) فقط دون الجميع، فتجمدا للحظات مبهوتين دون أن يتحركا أو ينطقا بحرف واحد، قبل أن ينهض (علي) عن (أسعد) ليجري ناحية البيت كالمجنون ومن ورائه يتبعه (أسعد) في لهفة، وقد انهمك الجميع في ذلك الجنون فلم ينتبهوا إليهما.

وفي البيت وقف (علي) بجوار الفراش ليحتضن كف أبيه وهو يبكي في حرقة مرددًا:

- لا يا حاج.. لا تمت أرجوك.. لا تتركنى هكذا.

ثم دفن رأسه في صدر أبيه وهو ينهنه في حرقة رهيبة.. وأمام أعين (سميحة) والفتيات اللواتي وقفن في صمت تام، ركع (أسعد) بجوار الحاج من الناحية الأخرى من الفراش وهو يلتقط كفه الأخرى ويقول دامعًا:

- ليرحمك الله يا أبي.. ليرحمك الله يا أطيب من عرفته يومًا.

رفع (علي) عينين مغرورقتين بالدموع إلى (أسعد) الذي مسح دموعه بظهر يده وهو يمد يده إلى (علي) في صمت.. فتطلع إليها لحظات مترددًا قبل أن يحسم أمره ويميل بجسده كله ليرتمي في حضنه ويبكيا في حرارة لتغرق دموعهما وجه الحاج ولحيته البيضاء.

* * *

بعد تلك الأحداث بثلاثة أيام...

ظلام تام غلف تلك الحجرة بصورة غريبة جاعلًا (سميحة) ترتجف خوفًا وهي تقف بمفردها تتلفت حولها في قلق بالغ.. حتى شق الظلام هذا الضوء الأخضر الخافت الذي انساب في نعومة من مكان مجهول ليغمر جسد (سميحة) ووجهها.. ومن ورائه ظهر خيال لرجل يرتدي عباءة واسعة مهيبة الشكل وهو ويتقدم ناحيتها في هدوء.. كان الضوء يضرب في عينيها فلم تقدر على تمييز ملامحه أبدًا حتى فتح فمه وتكلم:

- كيف حالك يا بنيتي؟

رفعت حاجبيها في دهشة وهي تهتف بصوت تردد في فضاء الحجرة:

- عمي (زاهر).. مستحيل.. أنت.. أنت...

قاطعها الرجل بابتسامة أبوية:

- ميت.. أعلم يا صغيرتي، ولكني لم أرغب أن آتي لأزور أحدًا سواك.. أردت أن أراك لآخر مرة...

ثم مال ناحيتها متابعًا بلهجة ذات مغزى:

- أردت أن أتاكد أنك ستحفظين العهد.

قالت في تلعثم:

- يا حاج.. هذا أكبر من قدرتي.. لا يمكنني أن أخفي هذا عن أولادك.

أشار إليها الحاج وهو يقول في هدوء:

- لقد عرف (عمرو) على كل حال.. حين مات في تلك المذبحة المجنونة وقابلني هنا عرف كل شيء قبل أن يأخذوه بعيدًا عني.. لكن في دنياكم لا ينبغي أن يعلم أحد غيرك يا بنيتي.. هذا قدرك أنت دون سواك.

سألته (سميحة) في حيرة:

- لماذا أنا؟.. ولماذا فعلت ذلك أصلًا؟

رغم الضوء ميزت ابتسامته المعروفة الحانية وهو يتمتم مجيبًا:

- كان لا بد يا بنيتي أن يموت واحد من أجل الجميع.. كنت واثقا أن موتي هو السبيل الوحيد لإعادتهم إلى رشدهم من جديد، ولهذا...

قاطعته (سميحة) في تلك المرة:

- ولهذا انتحرت يا عمي.. ابتلعت علبة الدواء بأكلمها أمامي لتصيبك تلك النوبة وتموت.

هز رأسه مؤمنًا على كلامها قبل أن يقول بنبرة أسى:

- هذا قدري يا بنيتي، كما هو قدرك أنك كنت لحظتها معي في الحجرة.. لقد مات واحد فقط من أجل أن يعيش كثيرون.. إنه ثمن بخس يا صغيرتي.

ثم اقترب منها ليربت على كتفها بشكل جعل الخدر ينساب بنعومة إلى جسدها ويغمره بالكامل:

- تحملي يا بنيتي واحفظي العهد الذي قطعتيه معي.. أرجوك.

أطرقت بوجهها أرضًا دون أن تجيب، لكنه برغم هذا عاد ليربت على كتفها من جديد وهو يقول مبتسمًا:

- أنا أثق يا بنيتي أنك ستحفظين السر.. ستحيا الحقيقة بحياتك ولن تموت إلا وقت أن يقضي الله أمرا كان مفعولًا.

قالها ثم تطلع بعيدًا إلى نقطة ما لم تراها، قبل أن يدير بصره إليها من جديد ويبتسم لآخر مرة قائلًا:

- لقد حان وقتي يا (سميحة)...

فتحت فمها لتنطق لكنها وجدته يتراجع رويدًا رويدًا إلى الوراء...

ويتراجع...

ويتراجع...

تاركًا الضوء يغمره ويغشى عينيها بشدة حتى غاب تمامًا عن ناظريها.. ومن بعيد تردد صدى جملته طويلًا في أذنيها:

- احفظي العهد يا (سميحة).. احفظي العهد...

ولا تخبري أحدًا..

تمت بحمد الله

للتواصل مع المؤلف :

hossam.adel123@yahoo.com

٠١٢٠٣٤٩٤٧٣

الفهـــــرس

لماذا فعل ذلك ٧
الباشا ١٩
صديقتي الأمريكية ٢٩
عبد المأمور ٣٤
في بلد اللحى ٥٣
كبش الفداء ٦١
وداعاً يا حبيبتي ٦٨
وساد السكون ٧٥
وقت الرحيل ٨١
بدم بارد ٨٣
ثلاث دقائق فحسب ٩٩
مفيش نصيب ١١٠
قصة لا تنتهي ١١٢
لا تخف يا صغيري ١١٧
في صمت ١٢١
سر حارتنا ١٢٣
لحظة ضعف ١٣٤
لا تخبري أحد ١٤٥